

١٤٠٠ لجنة ايجيل ايجيد

حكايات قصة فتى من الريف

تأليف
أولون شيرف

ترجمة
محمود الشنيطي

الناشر : مكتبة نرفزة مصر بالفيالة تليفونه ٥٠٨٢٧

أنطون تشيكوف

١٨٦٠ - ١٩٠٤

١٨٤١ - ينتمى أنطون تشيكوف إلى أسرة من الفلاحين الأفاح . كان جده
يجور تشيكوف من الرقيق في مقاطعة قورونيش بروسيا الوسطى ،
وقد استطاع بعمله الدائب أن يقتصد ثلاثة آلاف وخمسمائة روبل
فيشترى حرية أسرته سنة ١٨٤١ ، أى قبل إلغاء الرق بنحو عشرين
عاما . وكانت الأسرة من ثمانية أفراد ، دفع عن الرأس خمسمائة
روبل ، وأعفيت ابنته ألكسندرا من الضريبة . ثم رحلت الأسرة
من قورونيش إلى الجنوب .

وكان بافل تشيكوف - أبود - كاتباً في مدينة تاجنروج ، ثم
افتتح دكان بدالة بعد أن تزوج يوجينيا موروزوف ، ابنة أحد تجار
الآفشة المحليين ، وكان لأسرة تشيكوف ابنة واحدة وخمسة أبناء :
اسكندر ، ونيقولا ، وأنطون . وماريا ، وإيقان ، وميشير .

١٨٦٠ - ١٧ يناير . ولد أنطون في تاجنروج ، وإليك نسخة من وثيقة ميلاده .
مأخوذة من سجل كنيسة الكاتدرائية :

« ولد في ١٧ يناير سنة ١٨٦٠ ، وعُمد في ٢٧ يناير . أنطونيوس .
ذكر . أبواه : بافل يجوروفتش تشيكوف الماجر بتاجنروج ووروجته
السرعية يوجينيا باكو فلينا . كلاهما من الأرثوذكس . اشهود :

سبيريدون فيودوروف يتوف أخو تاجر من تاجروج ، وزوجة
ديمترى كيريكوف سافيانو پولو التاجر بتاجروج .

١٨٦٧ - أرسله أبوه إلى المدرسة اليونانية بكنيسة الملك قسطنطين .

١٨٦٩ - يدخل أنطون مدرسة تاجروج الابتدائية .

١٨٧٦ - ترحل الأسرة إلى موسكو بعد أن يصاب أبوه في عمله بفشل ذريع ،
وتحيا هناك في عز . يبقى أنطون في تاجروج ليم دراسته في المدرسة
الابتدائية ، ويضطر كي يقيم أوده في السنوات الثلاث الباقية إلى
التدريس للتلاميذ .

١٨٧٩ - يجتاز أنطون امتحانه . يلحق بأسرته في موسكو . يدخل كلية الطب
بجامعة موسكو . يضطر إلى القيام بأمره وأمر أسرته . يبدأ في
الكتابة للصحف الهزلية .

١٨٨٠ - (رسالة من السيد ستيفان فلاديميروفتش إلى جاره المحترم الدكتور
فريدريش .)

قصة تشيكوف الأولى . نشرها في الصحيفة الهزلية « ستريكوزا » .
وقد كتب تشيكوف في السنوات السبع الأولى من حياته الأدبية
أكثر من أربعائة قصة ورواية وصورة ونقد وتعليق وخبر قضائي
في المجلات اليومية والأسوعية بأسماء مستعارة .

١٨٨٤ - ينال إجازة الطب . يعمل في الصيف طبيباً بمستشفى زمستفو في
فوسكرنسك . يصيبه في الشتاء بموسكو أول نزيف .

١٨٨٤ - يقضى عطلة الصيف في بابكينو ويتعرف إلى الحياة العسكرية . يتصل
بسوقرير محرر جريدة نوفوى قريميا البطرجية ذات النفوذ . وإلى
دنا اصديقواخيم سيبحث تشيكوف أمتع رسائله . لتشيكوف مجموعة
رسائل تقع في ستة مجلدات .

١٨٨٦ - يدعى إلى المساهمة في تحرير نوڤوى قريما ، فتتاح له فرصة العمل الجدى . (أغنية البجعة) مسرحية فى فصل واحد .

أبريل . الإصاىة الثانية بالنزيف ، يقضى الصيف فى بابكينو .

١٨٨٧ - يقوم برحلة فى جنوب روسيا ، يهور آثارها فى نفسه فى (المروج) .
(فى السحر) مجموعة من القصص ينشرها سوفورين فى بطرسبرج .
(إيقانوف) مسرحية ذات أربعة فصول تمثل فى موسكو .

١٨٨٨ - يقضى الصيف فى لوكا بالأوكرين مع آل لنقاريوف . (المروج)
قصة رحلة . أقاصيص : (الأضواء ، حفنة عيد الميلاد ، الجميلات ،
النوبة) . (اللب) مهزلة فى فصل واحد . تمنحه أكاديمية العلوم
الإمبراطورية بيطرسبرج جائزة يوشكين : خمسمائة روبل . مجموعة
أقاصيص ينشرها سوفورين بطرسبرج .

١٨٨٩ - ينتجب عضواً فى جماعة محى الأدب الروسى . (المارد الخشبى) ماها
فى أربعة فصول تمثل فى موسكو . (قصة منه . من يوميات رجل شيخ) .
(الخطبة) مهزلة فى فصل واحد .

١٨٩٠ - يقوم برحلة عبر سيبيريا الى جزيرة سخالين . يقوم وحده بدراسة
احصائية فى معتقل المجرمين . (المثل رغم أنفه) مهزلة فى فصل واحد .
(الشياطين) قصة . (عبر سيبيريا) أحاسيس . (جوزيف) قصة .
يعود الى وطنه عن طريق سنغافورة والهند وسيلان وقنال السويس .
٢٣ ديسمبر ، أنا أسعل ، وبقلبي خفقان . لست أدرى لهذا
كله معنى .

١٨٩١ - يقوم برحلة الى غرب أوربا : فينا ، وفلورنسا ، وروما ، وناپولى ،

وباريس ، وينس الخ . (الهاربون في سخالين) أحاسيس . (المبارزة)
قصة طويلة . (النساء) قصه .

١٨٩٢ - يذهب الى مقاطعة نوجورود للمعاونة في اسعاف السكان الذين حلت
بهم المجاعة . يؤسس منظمة لإمداد الفلاحين المعوزين بالماشية والخيول .
يشترى حقلا في قرية ميلخوفو في مقاطعة سرپوخوف بثلاثة عشر
ألف روبل ، وينتقل هو وأسرته كلها من موسكو الى الريف . يعين
مراقبا طبيا تخريا لمقاطعته أثناء مكافحة وباء الكوليرا . « أنا أزور
القرى جميعاً ، وألقى محاضرات ... ، أقاصيص : (العنبر رقم ٦ ،
الجنادب ، الزوجة ، في المنفى ، الجيران .)

١٨٩٣ - « أنا أسعل . خفقان في القلب . عسر هضم . وصداع ... » (فتاة
الجوقة) قصة . (قصة رجل مجهول) قصة . (جزيرة سخالين)
مذكرات من رحلة في مجلة روسكاياميزل الشهرية .

١٨٩٤ - فبراير : « سعالى يؤذنى ، وبخاصة في الفجر . ليس هناك بعد شيء
ذو بال ،

مارس . يصح له الأحباء ، بالإقامة في القرم محافظة على صحته .
ينصحون له بالذهاب الى جنوب فرنسا . أقاصيص : (الراهب الأسود ،
ملكه النساء ، قصة رئيس الجنائين)

١٨٩٥ - مارس : (المنزل ذو الترفه) قصة - « كان لى حبيبة مره ، وكان اسمها
هيزيوس . وعن هذه أكتب . »

أكتوبر . (النورس) ملهاة في أربعة فصول . نوفمبر : (ثلاثة
أعوام) قصة طويلة . أقاصيص : (قتل ، أربادن ، الزوجة) .

١٨٩٦ - بصاب بنز هف رتوى . النورس تمثل في بطرسبرج . فشل تام . « لن

أنسى ليلة أمس ، لن أكتب مسرحيات بعد اليوم ، ولن أسمح بتمثيلها ،
 ١٨٩٧ - يعمل بهمة في مقاطعة سرخوف في الإحصاء العام للسكان . يبنى
 عدة مدارس أكثرها على نفقته في قرى ميلو خوفو ، وتاليش ،
 ونوفوسبولكي . يصاب بنزيف رئوي مفاجئ . أثناء غذائه مع
 سوفورين بمطعم في موسكو . ينقل إلى المستشفى . يقول الأطباء أنه
 السل ، ويأمرون بتغيير تام لنظام حياته . . يذهب إلى جنوب فرنسا
 يقضي الشتاء . (حياتي) قصة طويلة . أقاصيص : (الفلاحون ، في
 موطنى ، في العربى) .

١٨٩٨ - يظهر غناية فائقة بقضية دريفوس ، ويبدى سخطه على حملة
 نوقويا قريما ضد دريفوس . من ثم قطيعته لسوفورين . يموت والده .
 يحل بالقرم هو وأسرته اطاعة لإلحاح الأطباء . يشتري قطعة أرض
 . يبنى ميزلا قرب يالنا . تمثل مسرحية النورس بمسرح الفن بموسكو
 . تتالنجاحا داتلا . أقاصيص : (رجل في علبه ، يونيتس ، الساكن ،
 الزوج ، الحبيبة) . تمثل مسرحية الحمواتنا في الآلة بنجاح كبير .
 ١٨٩٩ - .. يبيع حقله في ميلو خوفو ، وينتقل مع أسرته إلى القرم . يبيع حقوق
 الطبع عن أعماله الماضية ، والآلية للناسر ماركس بيطرسبرج لقاء
 خمسة وسبعين ألف روبل . أقصوستان (السيدة ذات الجرو .
 الكوخ الجديد) تمثل مسرحية البرفانيا على مسرح الفن بموسكو .
 (في الوادى) قصة

١٩٠٠ - ينتخب عضواً في أكاديمية العلوم بيطرسبرج . يبدأ (الشقيقات
 الثلاث) . مارس . نسو . حاله الصحية .

١٩٠١ - يتزوج من أولجا كنير وهو ثلاثة بمسرح الفن بموسكو . تمثل قصة

الشقيقات الثلاث على مسرح الفن . (النساء) قصة .

١٩٠٢ - يستقبل تشيكوف من عضوية أكاديمية العلوم ، احتجاجاً على إلغاء السلطات لانتخاب مكسيم جوركي عضواً فيها . (القس) قصة .

١٩٠٣ - سبتمبر : « أنا أسعل ... أشعر بالضعف نوعاً ما » ، أكتوبر : ينتخب رئيساً مؤقتاً لجمعية الأدب الروسى . (بستان الكرز) ملهاة فى أربعة فصول . (العروس) قصة .

١٩٠٤ - ١٧ يناير : تمثل بستان الكرز على مسرح الفن بموسكو . ٢٧ مايو : (أنا مريض منذ اليوم الثانى من مايو . ولم أغادر الفراش) ٣ يونيه : يذهب إلى بادن فيلر ، إحدى مدن الاستشفاء الألمانية ومعه زوجته . ٢ يوليو : يقضى نحبه فى بادن فيلر ، يدفن فى مقبره دير نوفوديفيشنى بموسكو .

قال لى المدير :

- إني أحفظ بك احتراماً لأبيك الفاضل . وإلا لطرت عنا من

زمن طويل .

قلت :

- إنك حسن الظن بقدرتى يا سيدى .

فسمعتة يقول :

- أبعادوا هذا الفتى ؛ إنه يرهق أعصابى .

وبعد يومين طردت .

كنت قد غيّرت عملى تسع مرات منذ كبرت . وسبب ذلك
الأسف العميق لأبى ، مهندس البلدية . كنت أُنقل من إدارة إلى
أخرى . ولكنها جميعاً كانت سواء ، مثل قطرتى الماء . أجلس
وأكتب ، وأصغى إلى ملاحظات فارغة جافة ، وأنتظر حتى أطرده .
كان أبى جالساً على مقعده ، مغضض العينين ، حين أخبرته .
وكان وجهه يحكى وجه ضارب أرغن كاثوليكي شيخ ، فهو نحيل
جاف له زرقة لون البمامة حيث يَحْلِقُهُ - كان وجهه يعبر عن استسلام
هادى . قال دون أن يرد السلام أو يفتح عينيه :

— لو كانت زوجتي العزيزة ، أمك ، حية لحزنت لحياتك حزناً متصلاً . إنى لأرى للعناية بدءاً في موتها قبل حينها . ثم فتح عينيه وقال :
— قل لى أيها الفتى التمس ماذا أفعل بك ؟ .

حين كنت أصغر مما أنا الآن كان أهلى وأصدقائى يعرفون ماذا يفعلون بى ؛ نصحنى بعضهم أن أتطوع فى الجيش ، ونصحنى آخرون بأن أمتن الصيدلة ، وآخرون بأن أشتغل بالبرق ، ولكنى الآن وقد بلغت الرابعة والعشرين ودبَّ الشيب فى صدغى ، وجربت الجيش والصيدلة والبرق ، واستغرقت الفرص جميعاً ، لم يعودوا ينصحونى بل أصبحوا يهزون رؤوسهم فى حسرة .

مضى أبى يقول :

— ماذا تظن بنفسك ؟ إن غيرك فى مثل سنك لهم فى المجتمع مكانة طيبة . وانظر من أنت : شحاذ ، بليد ، فظ ، يعيش على نفقة أبيه . ومضى كماداته يرمنى شباب هذه الأيام بأنهم لا أمل فيهم ، قد قضى عليهم الغرور ، والمادية ، والإلحاد . ويحمل على حفلات الهواة التمثيلية لأنها تشغل الشباب عن دينهم وواجباتهم .

— سنذهب معاً فى الغد فتعذر لأمديروتعدده بأن تعمل فى المستقبل

بوحى ضميرك .

وختم كلامه بقوله :

— لا ينبغي أن تظل يوماً واحداً دون أن يكون لك مركز اجتماعى ما .

قلت مقتما وكنت لا أنتظر نتيجة من هذا الحوار كله :
— إن ما نسميه «المكانة الاجتماعية» شيء مُيسّر لأصحاب رأس المال والعلم ، أما الفقراء الجهال فينبغي أن يحصلوا على قوتهم بالعمل اليدوي الشاق . ولا أجد ما يدعو أن أشدّ عن ذلك .
قال أبي محمّداً :

— إنك حين تبدأ في الحديث عن العمل اليدوي يبدو كلامك طامياً ساذجاً . ألا تستطيع أن تدرك أيها الجاهل الأحق إلى جانب العمل اليدوي عبقرية إلهية — شعلة مقدسة تضعك في مستوى أعلى من الحمار والزواحف ، وتقربك من الله . إن خير البرية هم أولئك الذين كلّفوا ليّقة تلك النار مشتعلة آلاف السنين . إن جدك بولوزنيف Polozniev كان جنرالاً حارب في بؤرودينو ؛ وكان جدك الأكبر شاعراً وخطيباً وزعيماً للنبلاء . وكان عمك ممّاماً ، وأخيراً — وليس آخراً — فأبوك مهندس . أترى آل بولوزنيف قد أسلموا إليك هذه الشعلة متوهجة لتخدم في يديك ؟

قلت :

— لتكن عادلاً ، إن ملايين من الناس يعيشون على العمل اليدوي .

— وماذا في ذلك ؟ دعهم . إنهم لا يصلحون لشيء آخر . العمل اليدوي في وسع كل مخلوق حتى المتشردين ، والبُلّه ، والمجانين والمجرمين .

هذا العمل وقف على العبيد والبرابرة أما الصفوة المختارة منا فقد منحت
الشعلة المقدسة .

كان من العيب أن أستمّر في الجدل . فقد كان أبي يحبّ سماع
صوته . ولم يكن يقنعه غير آرائه ؛ ثم إن موقفه من العمل اليدويّ
لم يكن لايّ كباره الشعلة المقدسة بقدر ما كان لخوفه من أن أغدو
أصحوكة المدينة حين أصبح عاملا . فأتدادي قد أنهوا دراساتهم من
بعيد ، وبدأوا يشغلون مراكز مرموقة . فابن مدير بنك الدولة قد
أصبح عضواً في إدارة الضرائب ، بينما أنا - وحيد أسرتي - لاشيء .
كان الأخذ في هذا الحوار لا يجدي ، بل كان في الواقع بغيضا ،
ولكنني بقيت جالسا أعارض أبي معارضة ضعيفة آملا أنه قد يفهمني .
وكان الأمر جليا بسيطا لا يعدو أن يتناول طريق حصولي على القوت
ولكن أبي لم يدرك هذا . بل أخذ يحدثني عن بورودينو ، والشعلة
المقدسة . وعن عمي ، وعن الشاعر المسمى الذي نظم منذ أمد بعيد
شعرا رخيصة أجوف . ويدعوني بالآبله الجاهل الأحمق دون أن يفهمني
وكنت برغم هذا كله مخلصا في حبي لأبي وأختي . نشأت منذ الطفولة
على أن أستطلع رأيهما فيما يعرض لي . وكنت - محقا أو مخطئا -
أخشي دائما أن أزعجهما . وكان يرعيني أن أغضب أبي فأراد أن يمتليء عنقه
بالدم أو يصاب بصدمة .

عدت أقول :

— إن جلوس رجل في مثل سنيّ يكتب وينسخ ويصارع آلة
كاتبة، شيء مخجل وضع . ولا شك أن لا حاجة بذلك كاه إلى شعلة
مقدسة ؟

قال أبي :

مها تفل فهذا عمل فكريّ . كفاك . لنضع هذا الحديث .
ولكنني أحذرك . إنك إن رفضت أن تعود إلى عملك وآثرت اتباع
أهوائك الحقيرة ، فإناسحرمك — أنا وأختك — من عطفنا وسأخرجك
من الميراث — أقسم بعزة الله أن أفعل !

— إن أمر الميراث لا يعني في شيء : إني أنزل مقدما عن
كل شيء .

قلت هذا بدراحة تامة . ولم أكن أقدر أن فولي ينير حق أبي
فاستشاط غضبا وصاح في صوت زائر حادّ :
— كيف تجرؤ أن تخاطبني بمثل هذا أيها الأبله . إنك تنسى
نفسك يا وغد .

وصفعتني على وجهي بحركة صفاتها العادة مرة ثم مرة . فم أدر ، الأصنع .
خلتني ما زلت طفلا ألتقي الضربات كما كنت أفعل في صغري وأنا
واقف كالجندي ، وعيناي في وجهه . فوقفت جامدا وحاولت أن أثبت
بصرى في عينيه . وكان أبي شيخا ناعلا جدا ولكن لا شك أن
فضلاته كانت قوية كالسياط ، فإن ضرباته كانت شديدة الإيلاء .

تجنبت نحو الردهة ولكنه انتزع مطلقه ، وضربنى على رأسى
وكتفى عدة ضربات . وبدأت أختى عند باب الثوى لثرى سبب الضجة
ولكنها أسرعت خائفة وهى تنظر إلى فى عطف دون أن تشفع
لى بكلمة .

ظل عزمى ثابتا على ترك المكتب والأخذ فى نوع آخر من العمل .
وكنت شديد الأيد صالحا لأقصى إرهاق جسدى ، فكان أمر العمل
سهلا ، وإن كان تعيينه أهم ما يواجهنى . كان أمامى حياة العامل الربية
والجوع ، فى بيئة قذرة جافية ، يرين عليها التفكير فى كسب قوتها
اليومى . ومن يدرى لعل فى عودتى من العمل ، وأنا أذرع شارع الأعيان
الكبير أن أنظر بحسرة إلى المهندس دولشيكوف الذى كان يؤدى عملا
فكريا . فقد مرّ على وقت كنت أحلم فيه بنشاط فكرى فتصورت
نفسى معلما أو طبيبا أو كاتبا ، ولكن تلك الأحلام بقيت أحلاما .
وكنت شغوبا بالمرح والقراءة ولكنى لم أكن أثق بتدق على
العمل الفكرى . وكنت فى المدرسة أكره اللغة اليونانية فاضطر أبى
أن يخرجنى من السنة الرابعة ، وجعل المعلمون يترددون على المنزل وقتا
طويلا ليعمدونى للسنة الخامسة . ثم اشتغلت فى مكاتب حكومية مختلفة ،
لأ كاد أعمل شيئا ، وإن قيل لى إن ذلك عمل فكرى . ولم يكن عملى
فى المدرسة ، أو المكاتب يحتاج إلى جهد ذهنى ، أو ذكاء أو استعداد
خاص . كان آليا خالصا لا يقتضى ابتكارا . وهذا النوع من العمل الفكرى

أقل عندي من العمل اليدوي . أنا أحتقر مثل ذلك العمل وأرفض أن يكون مسوغاً لحياة الفراغ والبلادة التي يحياها أهله . فليس ذلك العمل في الحق إلا غشاً هو أحد مظاهر تلك البلادة . أما العمل الفكري حقاً فلست أعرف له معنى . أو ما يمكن أن يكون كذلك .

بدأ الظلام يهبط . وكنا نقطن في شارع الأعيان الكبير . الشارع الرئيسي في المدينة . ومنتزه عليه القوم لأن المدينة كانت خلواً من حدائق عامة . كان الطريق ساحراً قد غرست على جانبيه أشجار الحور ذات الرائحة الطيبة وخاصة غبّ المطر . وقد تدلت على أسوار المنازل أغصان الطلح والكرز والتفاح .

فإذا كان المساء في أيار كان للخضرة الظليلة ، وعبير الزنبق ، وطنين الحشرات . والهدوء والدفء — كان لذلك كله جدّة وروعة لا يفيض منها أن الريح يأتي كل عام . كنت أقف عند الباب أرقب المارة . وكان أكثرهم من لدائي نشأنا ولعبنا معاً ، ولكن وجودي الآن يزعجهم ، فلا يسي متواضعة عتيقة الطراز ، بسرّو إلى الضيقين للغاية ، وحدائي الكبيرين الياسين ، فكان السرّو والخذاء عود من (المكرونى) منصوب على مركب . ثم إني فيما يظهر ، لم أكن محبوباً في المدينة ، فليس لي في المجتمع مكانة ، وأنا أغشى المقاهى الرخيصة ألعب (البليارد) ، وقد شوهت مرتين يقودنى شرطى ، وإن لم يكن لي ذنب في المرتين .

كان المساء يهبط . وقد بدأت النجوم تلمع في السماء . وأخذت نغمات البيان تنبعث من منزل المهندس دولشكوف الكبير . وقد رأيت أبي ماراً في بطاء يتبادل التحية مع بعض الناس في طريقه . وذراعه في ذراع أختي . وهو يرندى قبعته العالية العتيقة ذات الأحرف المطوية إلى أعلى .
— أنظري .

قالها أبي لأختي وهو يشير إلى السماء بالمظلة التي ضربني بها .
— أنظري إلى السماء . إن هذه النجوم ، حتى أصغرها كل منها يمثل عالماً . يا لفضالة الإنسان إذا قورن بالكون !
قال هذا كأنما يستمتع بحقارته ، وكأن الفكرة قد أعجبتته . وازدأته .
إنه كان حقاً عارياً عن كل ذكاء أو خيال . وكان — وبالأسف — المهندس الوحيد في المدينة طوال الخمسة عشر عاماً أو العشرين الماضية . ولا أذكر أنه بُنيَ خلالها منزل جميل واحد في المدينة . كان من دأبه حين يرسم منزلاً أن يبدأ برسم الردهة ، والنوى . وكما كان من عادة فتيات المدارس قديماً أن يبدأن الرقص إلى جانب المدفأة . كان من عادته هو أن يبدأ تفننه من الردهة والنوى ، ثم يضيف إليها غرف المائدة والأطفال والتدخين ؛ ويصل بينها بأبواب . فتكون النتيجة أن تصبح الغرف جميعاً طرقاتاً للسرور ، وفي كل غرفة بابان أو ثلاثة . ولم يكن وراء ذلك فكرة واضحة بل كان التصميم كله مختلطاً مبهماً . ثم كأنما شعر بقصور تصميمه فأخذ يضيف إليه إضافات مختلفة حيناً بعد حين . وإني لاستطيع

أن أتمثل الآن تلك الجدران الحقيرة الضئيلة ، والمرات الضيقة الصغيرة والدرج الموعج ، ينتهى إلى عُلْيَةٍ لا تنصب فيها القامة مثل حمام روسى به سلم ضيقة تشغل فراغ الغرفة ، أما المطبخ ففى أسفل. أرضه من الحجر وسقفه معقود . وأما واجهة المنزل فمأبسة خشنة ، والسقف مسطح عليه مداخن غايظة مُدْمَلِجَة ذات فلانس سود من الحديد المشبك تصرّ عايتها ديوك الريح .

كل هذه المنازل المتشابهة التى بناها والدى كانت تذكرنى بقبعته العالية وعنقه الجامد القصير . ولكن المدينة اعتادت عمل أبى الذى لا يدل على موهبة . فغدا الآن طرازها الشائع فى البناء .

وقد أدخل أبى هذا الأسلوب فى حياة أختى . فهو أولاً قد سماها كلوبانرا كما سمى ميشل . ونشأها على الفرع من أقاصيص كان يحكيها لها عن النجوم والحكماء القدامى وعن أجدادنا ، وكان يفيض لها فى شرح معنى الحياة ، أو يحاضرها فى معنى الواجب . ولا يزال يفعل ذلك الآن وقد بلغت السادسة والعشرين . فهو لا يسمح لها أن تمشى وذراعها فى ذراع غيره ، وهو يوهم نفسه لسبب مأز سبائى يوم يتزوجها فيه فتى جميل تقديراً منه لشخص أبيها ومواهبه . أما عن أختى فهى تجلّ أباه وتخشاه ، وتؤمن بأفكاره الغريبة .

أخذ الطريق يخلو كلما تقدم المساء . وكفت الموسيقى من المنزل المقابل . ثم فتحت الأبواب ، وظهرت فى الطريق مجلة (ترويك) ترن

أجراسها الصغيرة رنيناً عذبا . كان ذلك وقت خروج المهندس وفتاته للزهوة . أما أنا فكان ذلك وقت ذهابي الى الفراش !

كانت لي في المنزل غرفة ولكنني كنت أوترأ أن أقيم في كوخ بالفناء الى جانب بنية أقيمت منذ زمن لحفظ السروج ، ولا زالت فيها المسامير الكبيرة التي تعاق عليها . ولكنها أهملت الآن ، وجعلها أبي مئوى لمجموعة من جرائد الثلاثين عاماً الفاتنة . وقد جعلها أبي مجلدات يحوى كل مجلد أعداد أشهر ستة . ولم يكن يسمح لأحد أن يقربها . وكانت إقامتي هناك تمنعني لقاء أبي وضيوفه . ثم كان ذلك ينحى عني شيئاً من الخزي الذي يسببه قول أبي إني أعيش على نفقته . فأنا لا أشغل غرفة في البيت . ولا أتناول وجبات الطعام كلها هناك .

كانت أختي تنتظرني وقد جلبت لي خفية شيئاً من طعام . شريحة من لحم البقر . وكسرة من الخبز . قطعاً منا في المنزل لم يكن جيداً . وكانت أختي تقتصر وسعها في النفقات . سنهدية بعبارات يكثر تردها في العار من نحو : « المال يحب التدير » و « الكوبك على الكوبك روبل » .

وضعت أختي الطبق على النضد . وجلست على سريري وبدأت نيكى . قالت :

— ميشيل . ما ذا تفعل بنا ؟

لم تخف وجهها بل أتركت دموعها تسيل على يديها وصدرها ، وقد

بدا عليها شقاء محيق . ثم غلبها البكاء فدفنت وجهها في الوسادة وأخذ
جسمها كله يختلج بالندى . قالت :

— أتركت عملك مرة أخرى ؟ يا لالبلاء !

قلت وقد صنفت بدموعها :

— أرجو أن تفهمي يا أختك .

وهنا شحّ الزيت في مصباحي ، كأنما قصد إلى ذلك قصدا .
وأخذ الدخان ينبعث من المصباح يكاد يخفيه . وبدأت المسامير
العتيقة في الحائط ترافق ظلالها على الضوء الخلابي ، كأنها أشباح
تتوعد .

نهضت أختي تقول :

— ارجعنا . إن أباي مذبذب . وقد أمرضني الأسى وكدت أجن .

ثم زادت ناشجة ضارعة :

— ماذا سيكون منك ؟ ارجع إلى المكتب . أتوسل إليك

بذكرى أمك .

قلت وأنا أحسّ أنني ألتخاذل لو استمرت :

— هذا محال يا كابواترا . لا أستطيع . لا أستطيع .

قلت في إصرار :

— ولكن لماذا ؟ لم لا تعود ؟ إن كنت لا تستطيع العمل مع

رئيسك هذا فابحث عن عمل آخر . لم لا تبحث عن مكان في السكة

الحديدية ؟ لقد تحدثت الآن مع أنيوتا بلاجوفو وكانت واثقة من أنهم
سيجلبون لك عملا . بل إنها وعدت بأن تتكلم من أجلك . فكر بالله
بامياشيل ، فكر في ذلك . أرجوك .

تحدثنا قليلا بعد ذلك . وقبلت أخيرا . وقلت إنى لم أجرب بعد
العمل في خط حديدى منشأ حديثا ، ولا أجد بأسا من التجربة .
فابتسمت من خلال دموعها في سعادة وصاغتني ، وهى لا تقدر أن
تكف دموعها . ثم ذهبت إلى المطبخ أجاب شيئا من الزيت .

— ٢ —

عُرف آل أشوجين بأنهم أكثر أهل المدينة عطفًا على حفلات
الهاواة التمثيلية ، والموسيقية ، والالوحات الحية ، التى تقام لأغراض
خيرية . وكانوا ينزلون عن منزلهم الذى يملكونه فى شارع الأعيان
الكبير للقائمين بها ، ويقومون بمهام الإعداد لها والاتفاق عليها . كان
هؤلاء الملاك الأثرياء يملكون قرابة ثلاثة آلاف فدان فى المقاطعة ،
ومنزلا فخما فى الريف ، ولكنهم لم يكونوا يحبون حياة الريف بل بقضون
فى المدينة الشتاء والصيف .

كانت السيدة أشوجين طويلة تميل إلى النحول ، رفيقة المظهر .
سعرها قصير . مقصوص . تلبس صدارا قصيرا وثوبا انجائزيا بسيطا .
والأسرة من بعد شقيقات ثلاث لا تدعى الواحدة منهن باسمها بل
بالكبرى والوسطى والصغرى . كن قبيحات بارازت الدقون . قصار

النظر . مقوسات الظهور . وكن يلبسن مثل أمهن . وكانت بهن جميعاً لتغة قبيحة . وهن مع ذلك يشاركن في كل حفلة ويساهمن في كل عمل خيرى . فيمثلن ويغنين وينشدن . وكن ذوات جد لا يسمن ولا يبدو عليهن شيء من المرح حتى حين يغنين في ملهاة موسيقية . كان ذلك كله نوعاً من العمل يؤدينه في انهماك كاتب الحسابات .

كنت مغرمًا بهذه الحفلات ، وخاصة ما كان منها للتجربة وهو كثير ، تغلب عليه القوضى والجلبة . وكنا نتناول العشاء دائماً بعد الفراغ . ولم أكن أشارك في انتقاء القصص أو توزيع أدوارها فقد كان عملي وراء الستار : ارسم المناظر ، وأنسخ الأدوار ، وألقن . وأصنع المسكياج ، وأقوم بالمؤثرات المسرحية فأرتجل صوت العاصفة أو البلبل إلى غير ذلك . وكنت أثناء التجارب أنفرد بنفسى فى الظلام وراء المسرح وألزم الصمت ، فقد كانت ملابسى متواضعة ولم يكن لى فى المجتمع مكانة . وكنت أعدّ الرسوم فى اصطبل بيت أشوجن أو فى الفناء ، يعينى فى ذلك أندريه إبانوفيتش النقاش ، أو مقاول الزخرفة كما كان يسمّى نفسه . وهو رجل قد قارب الخمسين طويل نحيل ، شاحب . ضامى الصدر . غائر الصدغين ، تحيط بعينيه هالة داكنة . كان يبدو كالشبح ، ويعانى مرضاً مُتَلَفًا يقف به عند حافة القبر ، ويُقَعِّده زماناً ثم يهض معافى فيقول :

— لقد نجوت مرة أخرى .

كانوا يسمونه في المدينة راديش . ويقولون إن ذلك اسمه الحقيقي .
وكان مولعاً مثلي بالمرح ، فإذا تراءى إليه أن هناك تفكيراً في
إخراج قصة ترك ما لديه من عمل وجرى إلى بيت أشوجن ليرسم
الناظر .

قضيت اليوم التالي لحديثي مع أختي أعمل في بيت أشوجن من
الصباح إلى المساء . وكانت الساعة موعد التجربة ، وقد اجتمع المثلون
جميعاً في الثوب قبلها بساعة . وكانت الكبرى والوسطى والصغرى
يذعن المسرح وفي أيديهن نسخ الأدوار . وقد وقف راديش في سترته
الأرجوانية الطويلة ، ووشاحه حول عنقه يرقب المسرح في اهتمام وقد
اعتند برأسه إلى الخائط .

كانت السيدة أشوجن تنتقل بين أضيافها ، وكان لكل منهم
عندها كلمة طيبة . كانت تنظر في وجه محدثها ، وتتكلم في همس
كأنها تلتقي إليك بسر . قالت في لطف وهي تدنو مني :

— إن رسم الناظر صعب لا شك . لقد كنت أناقش السيدة
موثكه في الاعتقاد بالخرافات حين رأيتك مقبلاً . يا إلهي ، لقد
تمددت الخرافة طول حياتي ؛ فأنا أوقد ثلاث شمعات معاً . وأبدأ كل
عمل هام في اليوم الثالث عشر ؛ حتى أبين لخدي فساد مخاوفهم .
ودخلت ابنة المهندس دولشيكوف وهي فتاة شقراء سمينة مليحة
تلبس ملابس باريسية — كما يقال — من الفرع إلى القدم . لم تكن

تمثل ولكنها كانت تجلس دائماً على المسرح . ولم يكن يبدأ التمثيل حتى تأخذ مكانها بالصف الأول وقد سحرت الجميع بملابسها الرائعة . كانت فتاة من العاصمة . فكان لها أن تنقدنا أثناء التجارب وقد اعتادت أن تفعل ذلك باليسمة الساحرة ، والكلمة الرقيقة . ولم يغيب عن أحد أنها كانت تنظر إلى حفلاتنا نظرتها إلى لعب الأطفال . وقد قيل إنها تعلمت الغناء في معهد بطربرج ، وغنت مع فرقة خاصة بالأوبرا طوال الشتاء . كان تأثيرها علىّ كبيراً فلم أكن أرفع عيني عنها طوال التجارب أو الحفلات .

ظهرت أختي غير متوقّعة حين تناولت نسختي وأوشكت أن أبدأ بالتلقين . وجاءت إلىّ دون أن تزع قبعتها أو معطفها وقالت :
— أرجو أن تتبعني .

تبعتها وعند الباب الخلفي للمسرح وجدت أنيوتا بلاجوفو بقبعتها وقناعها القاتم . وهي ابنة وكيل المحكمة في بلدنا منذ زمن بعيد بل منذ أقيمت المحكمة العليا . كانت فارعة الطول ، جميلة القوام ، فكان من الطبيعي أن تشترك في التابلوات الحية ولكنها كان يحمر وجهها حين تقبل أن تمثل دور ملاك أو إلهة . وكانت لا تشترك في التمثيل ، ولا تدخل القاعة ، ولا تحضر في التجارب إلا لأمر هام . فلما رأيتها أدركت أنها أنت لتمكث فترة وجيزة . قالت في حياء دون أن تنظر إلىّ ، وفي شيء من الخشونة :

— كان أبى يتحدث عنك . وقد وعده دولشيكوف بعمل فى الخط الحديدى . فاذهب اليه غدا وستجده فى المنزل . فأنخيت لها شاكرآ ما تمجسته من أجلى . ثم قالت مشيرة الى النسخة التى فى يدي :

— وتستطيع أيضاً أن تترك هذا . ثم ذهبت هى وأختى الى السيدة أشوجن وتها من لحظة وهن ينظرن الى . كان حديثهن لاشك عنى . ثم جاءت الى السيدة أشوجن وقالت وهى تنظر فى عيني :

— حقاً . اذا كان وجودك هنا يشغلك عن عملك وجب أن تترك الأمر لغيرك . اذهب الآن يا صديقى فى حفظ الله .

سلمت وخرجت وأنا مضطرب . فرأيت أينوتا وأختى تغادران المنزل حين كنت أهبط الدرج . وكاتنا نتحدثان باهتمام عن شىء ما لعله عملى بالخط . وانصرفتا مسرعين .

لم تكن أختى تحضر التجارب . وأكبر الظن أنها شعرت بشىء من تأنيب الضمير لحضورها . وخشيت أن يعلم أبى بذهابها الى بيت أشوجن فيغضب لأنها لم تستأذنه .

فى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم التالى ذهبت لأرى دولشيكوف . فأدخات الى غرفة أنيقة هى غرفة الاستقبال والمكتب معاً . وكان كل ما فيها لطيفاً أنيقاً . ولكنه يبدو غريباً لرجل مثلى لم يتعوده . كان هناك سجاد نفيس ، وكراسى كبيرة ، وتماثيل برونزية ، وصور فى أطر مذهبة أو نحلية ، ورسوم لنساء جميلات صباح الوجوه فى

أوضاع رائسة . وكان هناك باب يفتح على الشرفة التي تفضى الى الحديقة
تظهر منه شجيرات الزنبق ومائدة تحمل طعام الافطار عليها عدة
زجاجات وطاقة من الورد . وكان يشيع في الهواء عبير الريح ودخان
السيجار الجيد - جو من السعادة يوحى بأن هذه غرفة رجل قد ناضل
وحصل على كل ما يمكن أن يصل اليه الانسان من السعادة في هذه
الدنيا . وكانت فتاة المهندس جالسة تقرأ جريدة . سألت :

- أتريد أبى ؟ إنه لن يغيب طويلا فهو فى الحمام يترد . تفضل
فاجلس .

جلست . قالت بعد سكتة :

- إنك تقيم فى المنزل المقابل فيما أظن .

- أجل .

قالت :

- إنتى أقف، إلى جانب النافذة كل يوم - فأنا كثيرة الملل -
وكثيراً ما أراك أنت وأختك . إنها تبدو دائماً رفيعة رزينة .

• هنا دخل دولشيكوف . وهو يمسح عنقه بمشفة . فقالت ابنته :
- أبى . هذا هو السيد بولوزنيف .

- أجل . أجل أنا أعلم . فقد حدثنى بلاجوفو عنه - قال هذا
ملتفتاً الى دون أن يصاغنى - ولكن ماذا أستمطيع أن أقدم اليك ؟ أى
عمل ؟ إنكم أبها السيدات والسادة هم دوو عرابة .

ثم أضاف رافعاً صوته كأنه يؤنبني :

— إنى أقابل عشرين شخصاً يأسدى كل يوم . وكلهم يظن أنى أدير مكتباً للسكة الحديدية لاخطا . أنا استخدم رجالا لا عمل الشاق : أستخدم حدادين وفعلة ونجارين وحافرى آبار . ولكنكم جميعاً كتبة ! تنسيت حوله ربح السعادة التى لاحظتها فى أثاث الغرفة . فهو فوى البنية صحيح البدن : أحمر الخدين ، عريض المنكبين ، يبدو نظيفاً فى ثوبه القطنى وسراويله الواسعة مثل سائق زلاجة فى لعبة من الصياني . وكانت له لحية طويلة مستديرة ليس بها شعرة بيضاء . وأنف معقوف قليلا . وعينان سوداوان لامعتان . قال :

— أى عمل تستطيع أن تؤدى ؟ ليس هناك ما يمكن أن تقوم به .
إنى مهندس ميسر الحال . ولكنى شققت طريق بالعمل الشاق . وقد كنت عاملا عادياً ، واستغنت وقاداً فى بلجيكا . ففكرت فى أن أغيرها .
ماذا يمكن أن أقدم اليك . قلت مؤمناً وأنا لا أقوى على محديق عينيه اللامعتين الصافيتين :

— إنك على حق فيما تقول .

قال بعد برهة .

— هل تستطيع العمل فى البرق ؟

— أجل ، فقد اشتغلت به .

— حسنًا . سئرى . اذهب إلى دوبشنيا . إن لنا هناك رجلا واحداً ،
ولكنه رجل لا خير فيه .
سألت :

— وماذا أعمل ؟

— ستعلم ذلك هناك . اذهب أنت وسأبعث بتعليماتى . ولكنى
أحذرك من شئ : إياك والشراب . ولا تنقل علىّ بالتماس وإلا طردتك
قال ذلك وانصرف عني دون فحمة . فأنحيت له ولا بنته التى ظلت
تقرأ . وخرجت كسيفا حتى أن أختى حين سألتنى كيف قابلنى المهندس ،
لم أقو على النطق بكلمة .

صحوت مع الفجر فى اليوم التالى لأذهب الى دوبشنيا ، ولم يكن
أحد من سكان شارع الأعيان الكبير قد صحا بعد . فليس فى الطريق
بأمة . وكان وقع خضوانى نميلاً ، وحشاً . وأستجار الحور الندية بذوب
الثلج تشيع فى الهواء عطرها اللطيف . كنت حزينا . لا أجد رغبة فى ترك
المدينة التى أحبها وأجدها جميلة دافئة . وأحب أستجارها المورقة ، وصباحها
المشمس الهادى . وأجراسها الرنانة ، ولكنى أرى ناسها الذين أعيش
بمعهم يبعثون فى الضجر . هم غريباء عني . بل هم يثيرون فى التقزز أحيانا .
لم أكن أحبهم ولا أنبهم .

لم أستطع أن أدرك كيف ولأية غاية كان يعيش هؤلاء الخمسة
والثلاثون ألفاً من الناس . كنت أعرف أن أهل كمرى يتعيشون من

صنع الأحذية . وأن أهل تولا يصنعون السماورات والمدافع وأن أودسا ميناء . ولكن لم أكن لأدرك كنه مدينتي والغاية من وجودها . كان الناس في شارع الأعيان الكبير وفي طريقين أنيقين آخرين يعيشون على ديج رءوس أموالهم أو على مرتبات وظائف يتناولونها من خزانة الدولة . ولكن السر الذي لم أستطع أن أكتفه هو المورد الذي كان يعيش عايمه القوم الذين يسكنون ثمانية شوارع أخرى تسير متوازية قرابة ثلاثة الأميال ثم نختفي وراء التل . على أتى أخجل أن أتصور الحياة التي كان يحياها سكان المدينة . لم يكن هناك حدائق أو مسرح أو فرقة موسيقية محترمة . ولم يكن يزور مكتبة المدينة وناديا سوى شباب اليهود فكانت المجلات الأسبوعية والكتب تظل أشهرا طويلة دون أن تقض . بل إن الذين أحسست تنشئتهم من أغنياء ومثقفين كانوا ينامون في غرف صغيرة عفنة ، على أسرة خشبية يسرح فيها البق . ويجعلون لأطفالهم غرف تذررة يسمونها مبادا . أما الخدم فينامون على بلاط المطبخ تغطيهم الأسبال وإن أصبحوا بعد طول الخدمة أفرادا في الأسرة . كانت رائحة البورتلش تنبعث من المنازل غالبا ، أما في صيام الأربعين فرائحة السمك المقلى بزيت عباد الشمس . فليس لطعامهم مذاق والماء الذي يشربونه فاسد . كانوا دائما يتحدثون في الدوما وفي بيت الحاكم وعند الأسقف عن حاجة المدينة إلى مورد للماء النقي الرخيص ، وعن اقتراض مائتي ألف روبل من الخزانة لذلك . وكان في المدينة ما يقرب من ثلاثين

سرياً قد يفقدون في لعب الورق ضياعاً بأسرها ، ولكنهم يشربون ذلك الماء الفاسد ، ويقضون حياتهم في الحديث عن ذلك القرض . وكان من اليسير جداً أن يقومواهم بدفع المال من جيوبهم ولكن منطلعتهم شيء لم أستطع أن أفهمه .

ولم أكن أعرف في المدينة رجلاً واحداً شريفاً . كان أبي يرتشي ، ويعمد الرشا نوعاً من التقدير لمواهبه . وكان الطلاب في المدارس الثانوية يسكنون مع معلمهم ويدفعون لقاء معاشهم أجوراً باهظة فينتقلون من سنة إلى أخرى . وكانت امرأة قائد الكتيبة المحلية تقبل الرشا والمشروبات من الجندين أثناء خدمتهم الاجبارية . وقد سكرت مرة حتى أنها لم تستطع أن تنهض على قدميها وهي راكعة في الكنيسة . والأطباء أيضاً كانوا يرتشون من الفقراء . وكان لأطباء البلدية والبيطريين جمل على الجزارين وأصحاب القاهو وكانت الشهادات الطبية التي يتقدم بها حاملوها إلى مكتب الحكومة تباع في مدرسة المقاطعة . وكان كبار رجال الكنيسة يسطون على من دونهم وهؤلاء يبتزون وكلاءهم . وكان كل صاحب حاجة في البلدية يجد وراه من رجال الصحة أو غيرهم من يصيح به (أين الحلوان ؟) فيعود اليه يناوله ثلاثين كوبكا أو أربعين . أم هؤلاء الذين لم يعرفوا الرشوة كلوظفير الكبار في المحكمة العليا فكانوا متكبرين لا يصالحونك إلا بأصبعين ، وهم قساة عقولهم ضيقة ، يلعبون الورق وسرفوز في الشراب وبنزوجون .

من نساء موسرات ، ويضربون لمن حولهم أسوأ الأمثال .
كانت الفتيات وحدهن يتمتعن بشيء من التضارة ونقاء الخلق .
يؤمن أكثرهن بمثل عليا ، وقلوبهن نقية شريفة . ولكنهن كن
يمجهلن الحياة . ويرين في الرشا دليلا على التقدير للمواهب النفسية . وإذا
تزوجن أصابهن الهرم وقضى عليهن وانزلن في أحوال الحياة البورجوازية
الخسيسة إلى آخر العمر .

— ٣ —

كان هناك خط حديدى ينشأ بجوار المدينة ، وفي أمسيات الأعياد
كانت الشوارع تكتظ بمجموع من الأوباش . يسميهم أهل المدينة
« الفعلة » ويخشاهم الجميع . ولم يكن غريبا أن ترى رجلا من لابسى
الأسمال هؤلاء يساقى الى المخفر دون قبعة وقد تلوث وجهه بالدم . وقد حمل
الناس وراءه سمورا أو ثوبا حديث الغسل يشهد بما اقترف من جرم . كان
« الفعلة » يحتشدون حول الفنادق وفي السوق يتناولون من الطعام
والشراب القليل الخفيف . وكان فى أفواههم بداءة ، فاذا مرت امرأة مربية
حيوها بصغير عال . وكان أصحاب الحوانيت حذرين بدون تلمية ذل
الحشد الجائع الرث يستقون قطعا أو كلبا شينا من الفودكا . أو يربطون
صفيحة فقط مارغة في ذيل كلب فيعدو الكلب في الطرقات وهم ينصايحون
خلفه والصفيحة تطن وراءه وهو ينبج فزعاً كأنه يطن جنأ يلاحقه .
ويظل يعدو حتى يخرج من المدينة الى الحفول فيرتدى من الاعياء . ولم

يكن في مدينتنا غير عدد قليل من الكلاب فد أخذتها الرعدة فجعلت
أذنانها بين أرجلها . وكان الناس يقولون إنها لم تنطق هذا العبث
فأدركها الجنون .

كانت المحطة تنشأ خارج المدينة على بعد خمسة أميال ، ومتاع بين
الناس أن المهندس طالب خمسين ألف روبل رشوة حتى يجعل الخط يمر
بالمدينة . ولكن مجلس البلدية لم يقبل أن يعطيه أكثر من أربعين
ألفا . فكانت عشرة آلاف الروبل سبباً في ترك الأمر . ولكن
أهل المدينة أخذوا يشعرون الآن بالأسف . فقد قامت الحاجة إلى إنشاء
طريق معبد إلى المحطة ، وفدرت نفقاته بأكثر من عشرة آلاف روبل .
وقد وضعت القضبان والعوارض الخشبية على طول الخط . وأخذت
قطارات المصاحبة تجرى حاملة ، واد البناء والعمل كل شيء ودمت إلا
الجسور التي كان دولتيكوف يبنها . وإلا بضع محطات هنا وهناك .

كانت دواشيا - وهي المحطة الأولى - تبعد سبعة عشر ميلا عن
المدينة . فذهبت ماسياً . رشمس الصباح تهدهد الحبوب الشتوية والصيفية
فتبدو حضراء جميلة . والأرض سهلة بهيجة . وكان ياوح لي من بعيد
بناء المحطة وتلال المقابر والبيوت الريفية النائية . راقى أن أسير في حرية .
وكم وددت لو أشربت نفسي الأحاسيس الحرة حتى تروى . وإن لم يدم
ذلك غير هذا الصباح . كم وددت لو صرفت عن التفكير فما يجري
بالمدينة . وفي حاجاتي ، وعن الأحاسيس الجوع . إن سقائي الملح في الحياة

لم يأت إلا من هذا الاحساس المؤلم بالجوع ، فتختلط أفكارى النبيلة بالتفكير فى العصيدة والشواء والسبك المقل . حين أقف وسط الحقول وحيداً أرفع بصرى الى القبرة التى تعبى السماء فوقى وهى تفرد وكأنها استولى عليها جنون الفرح - لا أعمدو أن أفكر فى قطعة من الخبز والزبد وحين أجلس على جانب الطريق وأغلق عيني لأستريح . وأصغى إلى أصوات أيار الرائعة ، تمر بفكرى رائحة البطاطس الساخن . كان الاحساس بالجوع أهم ما أحس به . فقد كان ما أحصل عليه من القوت قليلاً لا يناسب فامتى وبنيتى القوية . ومن هنا فهمت كيف أن كثيراً من الناس الذين لا يحصلون من عملهم الا على الكفاف لا يتحدثون إلا عن الطعام .

كانت محطة دوشيا تجصص من الداخل ويوضع السقف الخشبى لخزان الماء . وكانت المحطة دافئة نستروح فيها رائحة الجير . والعمال يروحون ويقدون فيها على أكرام المصلات والكناسة . وكان عامل الإشارة قائماً فى رقبه والنفس تلمح وجهه . لم يكن بالمكان شجرة واحدة . وكانت أسلاك البرق تطل قليلاً وقد وقمت عليها الصقور هنا وهناك . أخذت أنقل بين الأكرام وأنا لا أدري ما أصنع . وذكرت أن المهندس قال « سترى » حين سألته عن عملى ، ولكن ما عسى أن يكون هناك من عمل فى ذلك المكان الموحش ؟ كان احصاؤون يتحدثون عن « الأسطى » وعن رجل يدعى قاسليف . ولكنى لم أفهم

عنهم ، بل استولى على الضيق — الضيق الجسمي الذي يصيب المرحين
يحسّ يديه وقدميه وجسمه كله دون أن يعلم ماذا يصنع بنفسه
ولا أين يذهب .

جلت قرابة الساعتين . ولاحظت أعمدة البرق على عين الخط ،
تمتد ميلاً ونصفاً وتنتهى عند جدار حجري أبيض . قال العمال عنه إنه
المكتب ، وهنا أدركت أن هذا هو المكان الذي ينبغي أن أتجه إليه .
كان منزلاً ريفياً عتيقاً موحشاً وقد تداعى الجدار الأبيض من أثر
الجو حتى نقب وانهار في بعض نواحيه . وكان الجانب الأصم من السقف
والمواجه للحقل قد تآكل ورقع بقطع من الصفيح في أكثر من مكان .
ورأيت من خلال الأبواب فناء واسعاً فدعته حشائش برية متكاثفة ،
ومنزلاً به عشر نوافذ مريوحة . وقد استحالت لون السقف داكناً من أثر
الصدأ . وكان على جانبي الممرل مساكن متشابهة . أولاً أن تبالك واحد
منها قد غطي بالواح من الخشب . وبشرت بعض اثنياب خارج مسكن
آخر لتجف . كان المنزل نوافذ من هذه الجهة . وقد بدت بضعة عجول
ترعى في الفناء . وكان فيه آخر أعمدة البرق قد امتد منه سلك إلى المسكن
الذي يواجه الحقل حداراً الأصم كان باب المسكن مفتوحاً فدخلت . وكان
هناك رجل ذو شعر فاحم جمد يرتدى سترة كتانية ويجلس إلى جهاز
البرق . نظر إلى شزراً ثم اباسم وقال :

— مرحى أهباء النفع القليل ،

كان الرجل إيفان شبرا كوف زميل في المدرسة . وقد طرد من السنة الثانية لأنه كان يدخن . وكنت وإياه نصيد الحسون والزرزور وغيرها من الطيور في الحريف ونبيعها بكرة في السوق وأهلنا يغطون في النوم . كنا نرقب الأسراب الصغيرة من الطيور المهاجرة ونقذفها بقذائف صغار ثم نمسك الجريخ منها ، فكان بعضها يموت متألماً . ولا زلت أذكر أينها في قفصى . وكان بعضها يبرأ فنبيعه ونحن نقسم أنه من الذكور . وأذكر مرة أنى بقيت في السوق ومعى زرزور واحد لم أجد من يشتريه وأنا أعرضه مدة طويلة حتى بعته بكوبك . فقلت أنعزى :
 - لا بأس . نفع قليل

ومن ذلك الحين سماني التلاميذ وأصحاب الحوانيت « النفع القليل » ولا زالوا يسموننى به : إذا أرادوا إغاضتى : وإن لم يكن أحد غيرى يعلم الأصل في هذه التسمية .

كان شبرا كوف رفيق البنية . ذا صدر صئق . وأرجل طويلة . وظهر مقوس ، وربطة رفيعة كالخيط . لا يلبس حذارا . وحذاؤه مكعوب ، فهو أسوأ من حذائى ، وكانت عيناه تطرفان : وعلى وجهه تعبير جامد ، فهو كثير التملُّك كما نأمره أن يقبض على شيء . قال في احتفال :

— أنظرتنى دقيقة . أصغ إلى . ماذا كنت أقول الآن ؟

وبدأنا نتحدث . فعلمت أن الضيعة كانت إلى وقت قريب ملكا

لآل شبرا كوف ، وأنها بيعت في الخريف الماضي للمهندس دولشيكوف ؛
الذى رأى أن استثمار المال في الأرض أجدى منه في الأسهم . فاشترى
ثلاث ضياع كبيرة مرهونة في المقاطعة . وقد اشترطت أمّ شبرا كوف
في العقد أن تقيم في أحد المساكن سنتين بعد البيع . واحتالت على المهندس
حتى حصلت لآلها على عمل عنده .

قال وهو يعنى المهندس .

— ولم لا يشتري . إنه يغشّ الماويلين ويسلب كل الناس .
ثم أخذنى للطعام ، وأصرّ على أن أقيم معه في السكن وأتناول
طعامى لدى أمّه . قال :

— إنها بخيلة نوعاً . ولكنها لن تكلفك كثيراً .
وكان مسكن أمه صغيراً جداً . قد اكتظّ حتى جدراناه ومخزّنه
بالمناجى ، الذى كوّم فيه من المنزل الكبير حين بيعت الضيعة . كانت
السيدة شبرا كوفاً تجلس في مقعد كبير إلى جانب النافذة تنسج جورباً .
وهى سيدة عجوز بدينة جداً ذات أعين مائلة كأعين الصينيين . وقد
تلقّيتنى في حفاوة حين قدّمتنى قائلاً :

— أماءه : هذا هو بولوزنييف ، وقد قدّم لي عمل هنا .

فسألتنى بصوت غريب كأن الدهن ينشّ في حلقتها :

— هل أنت من النبلاء ؟

— أجل .

— إجلس .

كان العشاء حقيراً . كعكة محشوة بجبن مرّ ، وشيء من حساء اللبن . وكانت مضيفتي إلينا نيكيفورفنا تطرف بعينها طول الوقت ، بعين ثم بالأخرى . وهى تتحدث وأنا كل . وكان جسدها يذّكر المرء بالموت ، وكأنّ له ربح الجنة ؛ فنبض الحياة فيها ضعيف ، وإن كان يوحى بأنّها كانت سيدة عظيمة فى وقت ما تملك عبيداً ؛ كانت أرمل جنرال يخاطبه العبيد بصاحب السعادة . فاذا توهّج البصيص فى رماذ حياتها قالت لابنها .

— إيفان . أحسن القبض على شوكتك .

أو تلتفت إلىّ وهى تلتف أنفاسها . فى دفعة السيدة الحريصة على إمتاع ضيفها بحديثها المؤدّب وتقوّل .

— إننا قد بعنا ضيعتنا ، كما تعلم . وكان ذلك مؤسفاً لأننا اعتدنا الحياة فيها . ولكن دواشيكوف قد وعد أن يجعل إيفان ناظراً لمحطة دوبشنيا ؛ فلا نحتاج أن نتركها . وسنقيم فى المحطة وبذلك نكون كأننا نقيم فى الضيعة . إن المهندس رجل كريم . ألا ترى أنه جميل الصورة ؟

كانت أسرة شبراكوف واسعة الثراء إلى عهد قريب . ولكن أحوالها تبدلت منذ مات الجنرال . فبدأت إلبينا نيكيفورفنا تنازع جيرانها وتقاضيتهم ، ولم تسكن تدفع أجور وكلائها زحاما كامنة - كانت تحشى دائماً سرقهم لها ، وفى مدى سنوات عشر تبدلت أحوال روستشيا تدلا تاماً ، فأهمل أبستان القديم الذى كان خلف المنزل . وأصبح تغطيه

الحشائش والشجيرات البرية . وحين ذرعت الغرفة - ولم تكن قد تهدمت بعد - أو ذهب رواؤها - كنت أرى خلال الباب الزجاجي غرفة أرضها من الخشب المدهون ، لعلها غرفة الاستقبال ولكن كان كل ما فيها يائناً عتيقاً . ورسوماً في أطر عريضة من خشب المكنة . ولم يعد يرى في أحواض الورد شيء سوى الخشخاش .

وكانت نباحها الحمراء والبيضاء نملو على الحشائش . وعلى طول الطرقات كانت تتكثر شجيرات الدردار والاسفندان النابتة وتُسْقَى في الجو . وتتلاصق فتعوق نمو بعضها البعض . وقد أكلت الأبقار من أوراقها ، وتكاثفت النباتات في الحديقة حتى لم تدع بها طريقاً . ولكن ذلك كان في جوار المنزل حيث بقيت أشجار الحور . وأشجار السنوبر والليمون العتيقة من آثار طارق عسيرة دارسة المأوراء ذلك فقد أفسح القناء لدوس الغلال : فلا يمتلئ ، فك أو غيرك بخيوط العنكبوت . والهواء أكثر نقاء وفي أجواسه خفيفة وكلما أوغلت في البستان وبعدت عن المنزل زاد البستان انساعاً . ورأيت أشجار الكرز والبرقوق تنمو حرة ، وأشجار التفاح العتيقة مستندة إلى أعواد وقد أفسد السوس شكلها . وأشجار الكمثرى وقد بلغت من الضخامة حداً لا تظن معه أنها أشجار كمثرى . كان هذا القسم من الحديقة مباحاً لسكان المدينة . وكان يحرسه من اللصوص والزرارير قلاع أبلة يسكن في كوخ قريب . كان البستان ينحدر إلى النهر المملوء بالبردى ، وتقل كثافته حتى

يقعدو أرضاً معشبة . وكان وراء سد الطاحونة لسان من الماء عميق مليء
بالأسماك ، للضفادع فيه نقيق مزعج . أما الطاحونة الصغيرة المسقوفة
بالبوص فكان لها دوى صاخب . وكان ماء النهر في استواء المرأة . تمر
عليه أحياناً دوائر صفار تضطرب على صفحته زنابق الماء تثيرها اندفاعه
سمكة عابرة .

وكانت قرية دوبشنياعلى الضفة الأخرى من النهر . ذلك الأزرق
المهادى الساحر يبعث الرّوح والسكينة . أصبح هذا كله الآن ماسكاً
للمهندس . الماء والطاحونة وضفة النهر الرائقة .

في هذا المكان بدأ عملي الجديد . كنت ألتقي البرقيات وأرسلها .
وأعد قوائم الأجور . وأتقح التقارير والعرائض التي يبعثها الأميون من
الاسطوانات والعمال . على أنى كنت أقضى أكثر النهار لا أعمل شيئاً .
أذرع الغرفة جيئة وذهوباً في انتظار برقية تأتي . أو أنزل صبيّاً يرقب
ذلك . وأذهب أتمشى في المديقة حتى يسرع إلى الصبي يخبرني أن آلة
الاستقبال تدق . وكنت أتناول طعامي لدى السيدة شيرا كوف وهو في
الغالب طعام قواسه اللبّ . أما اللحم فقما كنّا نأكله . كنّا نأكل
كل أربعاء وجبة في أطباق وردية اللون كانت تسمى أطباق الجسيم .

اعتادت السيدة شيرا كوف أن تطرف بعينها وكان يحضرها
يبعث في نوعاً فامضاً من الضيق . ولما كان العمل أقل من أن يكاف به
شخص واحد . فلم يعد اشيرا كوف شيء يعمل . فهو يناد أو يذهب إلى

النهر يصيد البط . وهو في الليل يعاقر الخمر في القرية أو المحطة . فاذا رأى صورته في المرأة قبل ان ينام صاح :

— مرحى . ايفان شبرا كوف .

واذا سكر شحِب وأخذ يفرك يديه . ويسمع له ضحك كالصهيل —

هى . هى . هى — وربما بلغت به النشوة مبلغاً فتعزى ، وأخذ يجرى في الحقول عرياناً . وأكل الذباب وهو يقول إنه يحس له نوعاً من المراحة .

جاءني مرة بعد العشاء وهو يعدو لاهياً وقال :

— تعال . إن أختك وصلت .

فتبعته ووجدت عربة خارج بوابة المنزل . وكانت هناك أختي .

وأنيوتا بلاجوفو ومعها رجل في بزة عسكرية صيفية ، عرفت فيه حين اقتربت ، أخا أنيوتا الطبيب

قال :

— قد أتيناك في نزهة خلوية . أظنك لا تجد في ذلك بأساً ؟

وكان يلوح على أختي وعلى أنيوتا أنهما تريدان أن تستفسرا عن

حالي . ولكنهما كانتا تنظران إلى في صمت . وأما أنا فلم يكن عندي

ما أقول . أدركتا أنني لم أكن سعيداً هنا فبدأت أختي تبكي واحمرت

وجتتا أنيوتا .

ذهبنا إلى الحديقة وكان الطبيب في الطليعة يقول في تعجب :

— ما أتق الهواه ! يا إلهي ما أتق الهواه !

كان مثل طالب صغير حذاً . يذكرك بذلك حديثه ومشيته ،
وعيون الرماذية ذات التعبير النافذ الصريح الخالص . وكان يبدو وكأنه
يرتدى ثوب الحداد إلى جانب أخته الطويلة الحيلة . وكان خفيف شعر
الاحية . وكذا كان صوته نبرة خفيفة عذبة . قال إنه ذهب إلى بطرسبرج
في الخريف ليؤدي امتحانه . فقد كان ماتحقا باجيش وجاء في إجازة يرى
أسرته . فهو رب أسرة . تزوج في السنة الثانية وله ثلاثة أولاد .
ولكنهم يرجفون في المدينة بأن زواجه لم يكن سعيداً . وأنه قد ترك
زوجته . قالت أختي في اضطراب :

... كم الساعة الآن ؟ أظنني يجب أن أعجل بالعودة فقد أذن لي أبي

أن أبقى مع أخي إلى السادسة !

قال الطبيب متنهداً :

— يا لله .. أبوك .

وكنت في ذلك الحير قد أعددت السماور . وأخذنا نشرب الشاي
ونحن جلوس على سجادة في المنزل الكبير . قال الطبيب إنه سعيد
سعادة لا حد لها . وكان راكعاً يشرب شايبه في فنجانه . ثم نهض
شبرا كوف وذهب يحضر مفتاح الباب الزجاجي الذي يفضى إلى المنزل
ودخلنا جميعا . فإذا به مكان كثيب تحيط به الأسوار . وتسروح فيه ريح
الكفاءة . وكان لخطواتنا صدى كأن تحتنا عقد غرفة . وقف الطبيب

قريباً من البيان ولمس مفاتيحه برفق ، فأجلب بصوت ضعيف كأنه آت من بعيد ولكنه واضح كل الوضوح . ثم أخذ يغنى أمزوجة فيتقلص وجهه . ويدق الأرض بقدمه نافذ الصبر كلما خرس أحد المفاتيح عند لسه . ولم تقل أختي شيئاً عن العودة إلى المنزل ، بل ظلت تدور في العفرفة فاحصة وهي لا تفتأ تقول :

— كم هذا جميل أنا سعيدة . . . سعيدة للغاية .

كان يبدو غريباً لها أنها تستطيع أن تسعد . وكانت هذه هي المرة الأولى في حياتي التي رأيتها في مثل ذلك المرح . بل إنها كانت جميلة ، وإن كانت صورتها الجانبية خالية من الجمال في أنفها وذقنها بروز كبير . وهي تبدو كأنها تنفخ دائماً في شيء ما . ولكن كان لها عينان سوداوان جميلتان . ووجه شاحب رفيع . يخلب المرء بعبيره اللانهائي بالمعذوبة والحزن . وقد ورثنا بيتنا عن أمنا . فنحن عراض الأكتاف . أقوياء . ولكن نحوبها كان علامة على المرض . وكثيراً ما كانت تسعل . وكثيراً ما لاحظت في عينيها التعبير الذي يراه المرء عند الرضى المدفنين الذين يحاولون لسبب ما إخفاء مرضهم . وقد كان في مرحها شيء من الطفولة والسذاجة . كأنما اضرج الذي حبسته طفولتنا الكثيرة وعطلته قد استيقظ في رؤسها فجأة ليتدفق في حرية

ولكن حين حل المساء وانحسرت امربة غاب على أختي الخضوع بالسكون . وظهر عليها الانعياled في العربة وكأنما هي عربة

مجن . ولم يمض وقت طويل حتى كانوا قد ذهبوا وخفت صوت العربية
المتباعدة فتذكرت أن أنيوتنا بلا جوفو لم يتبادل معي كلمة في ذلك اليوم .
- إنها مائة مدهشة . كذلك دار أفكرتي . - الساسة عجيبة .
وحل صيام الأربعاء وكنا نتناول كل يوم عامام الصيام الحالى من
اللحم ، وكاز الكسل وعدم اطعثنانى على مركزى يحزان في نفسى .
فكنت أجوب الضيعة من راحيا حائعا غير راضٍ عن نفسى وأتروى
حاله من النشاط لآترك المكان

وذات مرة في العصر . وكان رادشر معا . دنا إلى الكوف دون
أن توقعه . وقد لوححت وجهه أمانة اسير . وسنة العبار ، كان عا
خرج يفش على الخط منذ ثلاثة أيام . وعدم إلى دو سينار فاطرة . ثم
أكمل الطريق ماسيا جلس عندنا في المسكن ينتظر العربية التي أمر أن
تقابلة ، وطاف بالضيعة ومعه وكيله وهو يابى إليه الأوامر بـوب - مال
ثم جلس ساعة كاملة في دكة : بحرر رسائله بما من . ما طالب
البرقيات تريد امدد روى حرر ، نس ، بحرر وقود ، وحرر او نامه .
قال وهو نضح احسارت ، عاصبا :

- ما دمه الفوضى : . أنتمى امكة - إلى المحطة حارل امبر عين .
ولست أدري ماذا أفعل بكم حينذاك . قال شبرا كوف :
- إبنى بد بدلت غاية جهدى يا سيدى .

— هذا صحيح . إنى أستطيع أن أرى جهلك . إن ذلك لا يعدو
نسلمك أجرك .

ونظر الى المهندس ثم استمر يقول :

— انك تعتمد على احد يمهلك . ان ربك في الحياة بأقل جهد ممكن .
وأنا لا تهمل خطابات التقديم . فلم يعاوى احد . وقد كنت سائق فاطرة
نبل ، أن يكون لى هذا الخط . وقد اشتغلت ، وفادأ عادما فى بلجيك . ثم التفت
الى راديس وقال

— وأنت يا باتلى ماذا تعمل هنا ؟ اتعاقب الرخ :

كان المهندس يسمى الناس المستطاء باسم باتلى . بينما يحتقر الرجال
أمثال سيراكوف ، وأهالى ويسميهم مكبرى . وسهائم . وسوقة . وقد
حاربوا فى الحرب العالمية الأولى . وعاشوا فى الرخمة
فى تعيين أجورهم . أو طردوا من بلادهم .

ساعت الأمانة آخر الأمر . فبشرقا المهندس وهو ذاهب أن يطردنا
جميعا فى مدى أ. بوعب . ودعا الوكيل بالمجنون ، ثم تمدد فى العربة
مسرحا ، ذهب

تأخرت

— يا أنتدريه إفاندينس أناخذنى عما عندك .

— زالا

وذهبت معاصوب المدينة رحلا . عن محطة والمرعة قامت :

— يا أندريه افانيتش ، لماذا جئت الى ثوبشنيا ؟

— جئت أولاً لأن بعض رجالى يشتغلون في الخط ، وثانياً لأدفع للسيدة شيرا كوف ربح مالها ، فقد اقترضت منها خمسين روبلا وأنا أدفع لها الآن روبلا عن كل شهر .

ثم وقف النقاش وقبض على سترنى وقال :

— يا صديقي ميشيل اليكسيقتش . أنا أعتقد أن الرجل العاى أو النبيل اذا تقاضى ربما ارتكب خطيئة ، ولم يعد يعرف الحق والعدالة .

وكان راديش يبدو نحيلاً شاحباً حاد النظر حين هز رأسه . وتتم في نبرة المتفلسف :

— إن الصراصير تأكل الحشيش . والصدأ يأكل الحديد .
والأ كاذيب تنخر الروح . اللهم احفظنا نحن الخاطئين التعماء .

— ه —

كان راديش رجلاً خيالياً ، ولم يكن رجل أعمال . فكان يتعهد أعمالاً لا يستطيع أن ينهض بها ، وحين يأتى ميعاد الدفع كان ينسى حسابه وبذلك كان يعمل باخسارة دائماً .

كان راديش نقاشاً وزجاجاً . ومورق جدران . وقد يشتغل في أردواز السقوف ، وأذكر أنه ظلّ يبحث مرة ثلاثة أيام عن ألواح أردواز ليحصل على ربح تافه . وكان ماملاً ماهراً قد يجنى عشرة روبلات

في اليوم، ولولا طموحه إلى أن يكون أسطى وأن يسمى نفسه مقاولا
لكان قد جمع قدراً طيباً من المال .

كان يقبض عن الصفقة ، ويدفع لى ولغيرى عن اليوم بين الخمسة
والسبعين كوبكا والروبل . وحين يكون الجو حاراً جافاً كنا نؤدي أعمالاً
مختلفة في الخارج أهمها طلاء السقوف . كانت أقدامى - قيل أن اعتاد
ذلك العمل - تحترق كأنما كنت أمشى على فرن ملتهب ، فإذا لبست
حذاء اللباد ورمت قدمائى . ولكنى اعتدت العمل بعد قليل وسار كل
شئ على ما يرام . وأصبحت أعيش الآن بين قوم يرون العمل شيئاً
ضروريا لا مفر منه ، فهم يعملون كخيول العربات . أما القيمة الأدبية
للعمل فشئ لم يكونوا يقدرونه ولم يكن يدور في حديثهم . وقد
شاركهم هذا الشعور حين شاركهم الحياة . فحاولت أن أفتح نفسى أن
عمل شئ مهم لا مفر منه . وقد ساعدتني هذه الفكرة على احتمال
ونفت عني الظنون .

راقتنى أول الأمر جدّة كل شئ . وشعرت أنى ولدت من جديد .
استطعت أن أنام على الأرض . وأن أمشى حافياً . وكان ذلك كله يلدنى .
واستطعت أن أكون وسط جماعة من العمال دون أن أشعر أنى أصابق
أحداً . وإذا سقط جواد في الطريق سارعت أعاون في رفعه ، دون أن
أخشى تلوث ملابسى . وكنت - وهذا هو أهم شئ عندي - أعيش على
كسب يدي ولا أثقل على أحد .

كان طلاء السقوف، وخاصة بما كنا نستعمل من زيت وطلاء .
 عملا مربحا للغاية، ولذا لم يكن أحد يحتقره على خشوته ومشقته حتى
 الأسطوات أمثال راديش . كان راديش يمشى على السقف في سراويل
 قصار بأرجله الحمر كأنه البجعة وكنت أسمعه يهجس لنفسه وهو يطلى .
 اللهم احفظنا ؛ نحن الخاطئين التعساء ؛ وكان راديش يتنقل على السقوف
 في سهولة كأنه على الأرض . وكان نشاطه غريبا رغم ما يبدو في
 مظهره من ضعف يقرّبه من الأموات . وهو حين يطلى قبة كنيسة
 أو أعلى سقفها لا يستعمل السقالة . وإنما يستعمل سلما وجبلا . كما
 يفعل من هم أفتى منه من الرجال . فاذا وقف على قمة السلم بعيدا عن
 الأرض ، وقد انتصبت قامته . راع المرء أن يسمعه يهتف دون أن يقصد
 أحدا بعينه .

— إن الصراصير تأكل الحشيش . والصدا يأكل الحديد .
 والأكاذيب تنخر الروح . أو لسمعه يقول كأنما يجيب على أفكاره .
 — كل شيء قد يكون . كل شيء قد يكون .

عند رراحي كان المكتبة ومغار أصحاب الحوايت . وفتيانهم
 الجالسون في حدائقهم يندرون بي ، وقد أزعجني ذلك أو الأمر بدالي
 شيئا فطيعا . كنت أسمع من كل جهة « النغم القليل » ، « النفاس » ، « الطينة
 الصفراء » وم يكن أحد يصرفي معامتي . و « أو تلك الديس » إلى
 عدد هريب من عامة الناس . يكتسبون أرواحهم بال « الشاف » وحده .

فربما ألقوا على جرة ماء وكانهم لا يقصدون ذلك . وأنا أسير في السوق إلى جانب بائع الحداثد ، وقد فذفوني مرة بعضا . واعترض طريقى ممّاك كهل أشمط وقال لى خاطبا :

— أيها الأبله ، أنا لا آسف لك ، وإنما أمدنى لأبيك .

ولأمر ما كان يبدو الضيق على أصدقائى حين يلقونى : منهم من يرانى شاذّا مغفلا ، ومنهم من يشفق على ، ومنهم من حار فى أمرى فهو لا يدرى كيف يواجهنى . وكان من الصعب أن يحبس المرء ما خالجه من نحوي من شعور . فابلت أنيوتا بلاجوفو فى وضح النهار مرة فى درب من دروب شارع الأعيان الكبير ، وكنت فى طريقى إلى عملى . وأنا أحمل فرجونين طويلين ودلو طلاء ، فتخضب وجهها حين عرفتني وقالت :

— أرجو لك ألا تظهر معرفتك لى فى الطريق .

فالت ذلك فى عصبية وجهاء وبصوت مرتعش دون أن تمد يدها بالسلام . ثم لمعت الدموع فى عينيها وقالت :

— اذا وجب أن تكون كما أنت الآن فلك ذلك . ولكنى أرجوك

أن تتجنبنى أمام الناس

وكنت و- تركت شارع الأعيان الكبير . وسكنت فى ضاحية ندىس مكارينجا مع مريتي ، العجوز كايوفنا . ، وهى امرأة سليمة الطوية ، ولكنها عجوز كثيرة التشاؤم تزعجها أحلامها ، وترى الفأل السيء والنحس فى النحل والغضابير التى تغير فى غرفتها . وكانت تعتقد أن أمرى

لا يبشر بحير إذ عدوت عاملاً . قالت في أسي وهي تهز رأسها :
- أنت فتى ضائع . . ضائع .

وكان يسكن معاني بيتها الصغير ابنها المتبني بروكوفى . وهو جزار
ضخم ، ورجل جاف قد قارب الثلاثين ، أحمر الشعر ، أجرد الشارب . كان
إذا لقينى فى ردهة الدار تنحى لى عن الطريق فى صمت واحترام ، وإذا
سكر حيانى تحية عسكرية . وفى المساء بعد تناول العشاء كنت أسمع
من وراء الحاجز الخشبى شخيرته ونحيبه وهو يشرب قدحاً إثر قدح .
ويقول بصوت خافت :
- أماء .

فتجيبه كارپوفنا وكانت شديدة الحب له :
- نعم . ماذا لديك يا ولدى ؟

- سوف أحسن إليك يا أماء . فأطعمك حين تعلوبك السن فى وادى
الدموع هذا . وحين يدركك الموت سأدفنك على حسابى . هذا قولى وسأنفذه .
واعتدت أن أصحو كل يوم قبل الشروق ، وآوى إلى فراشى مبكراً
فنحن - النقاشين - نكثرون إلا كل وتنام نوماً عميقاً . ولكنى فى الليل
كنت أحسّ بقلبي يدقّ دقا سريعاً لغير سبب أعلمه .

لم أنشاجر مع رفاقى قط . وإن كان النهار كله ينقضى دون أن يكفّ
سيل الشتام . والدعوات الصالحة من نحو : ليفقأ الله عينيك أو لتصبك
الكويلرا ! فإن ذلك لم يمنع أن تقوم الصداقة المتينة فيما بيننا . وكانت

تخالج الرجال في أمرى شبهة أتى من أتباع طائفة دينية حاصمة ، وكانت
طبائعهم الساذجة تدعوهم إلى الضحك منى ، قائلين إئتى منبؤ حتى من
والدى ، وكانوا يقرّون بأنهم لا ينهبون إلى الكنيسة إلا لئلا ، وأن
كثيراً منهم لم يجلسوا في كرسى الاعتراف منذ سنوات عشر . وكانوا
يررون ذلك التواني بأن النقاش بين الناس كفراب الزرع بين الطيور .
كان رفاقي محترمونني ويكبرونني . وقد حبينى إليهم فيما يبدو أتى لم
أكن أسكر أو أدخن ، وأتّى أحيا حياة هادئة رتيبة . على أن الأمر
الذى كان يثير فيهم الاستغراب هو أتى لم أكن أسرق الزيت أو أذهب
معهم إلى مستخدمنا نطلب كأسا . فقد كانت سرقة الزيت والطلاء عادة
من عادات نقاشى البيوت . ولم يكن ينظر إليها على أنها سرقة . حتى إن
رجلا شريفاً مثل راديش كان يأتى دائماً من عمله - وهذا عجيب -
بشيء من الزيت والأبيض . بل إن بعض الشيوخ المحترمين الذين كانوا
يملكون منازلهم الخاصة في مكارمحا لم يكوّنوا ينجلون من طامب
الحلوان . وكم مسّ قلابى الحزن والآام حين كنت أرى الرجال في بدء العمل
أو نهايته ، يتقدمون إلى مغفل من السوفة ويشكرونه في ذلة على ما تفهمهم
به من أفلاس قليلة . كان العمال يسلكون مع العملاء مسلّك رجال الحاشية
الماكرين . وكان ذلك يدكرنى كل يوم بشخصية پولونيوس عند
شكسبير . يقول العميل وهو ينظر إلى السماء :
- سينزل المطر لا محالة .

فيؤمن العمال على كلامه فائمين :

-- لا شك أنها متمطر

-- ولكن السحب لا تنذر بمطر . فاعلموا لا تمطر .

-- نعم ياسيدي لن ينزل المطر . ان ينزل المطر .

ولكن العليل لا يكاد يوايهم ظهره حتى يسحروا منه سخرية قاسية

وإذا رأوا سيدي يجاس في شرفته وييده جريده فالوا

-- إنه يقرأ الجرائد . ولكنه لا يجد ما يأكله .

لم أزر أهلي قط . ولكني كنت أجد عدوذي من العمال غالباً

كلمات قليلة تشف عن الجزء نكتتها أختي إلى عراني . كيف كان ،

الدهن أثناء العشاء . وكيف ، اسأل إلى مكتبه وأغلق عني بابه ولم يغادره

الابعد زمن طويل . وكان من هذه الأوقات عجبني فلا اقدر على النوم ،

بل كنت أخرج في الليل . في شارع الأوبرا .

بمزلنا . وأتطلع إلى النوافذ لمجدد . اسأل في نفسي أكره ،

في الداخل على دوائر . وكنت أفتن في زواياها .

حفية كأنها لم تك . في الليل . في بيتي . فإذا دخلت غرفتي ،

سحبت وديت . في الليل . في بيتي . فإذا دخلت غرفتي ،

-- يا أباي . في الليل . في بيتي . فإذا دخلت غرفتي ،

سقطت في عني . في الليل . في بيتي . فإذا دخلت غرفتي ،

نحي أمك . في الليل . في بيتي . فإذا دخلت غرفتي ،

فأجيب:

— يا أختي العزيزة . كيف أصالح أمراً أعتقد أنى أسير فيه بوحى ضميري ؟ حاولى بالله أن تفهمينى
— أنا أعلم أنك تعمل بوحى ضميرك . ولكن ينبغى أن تفعل ذلك دون أن تؤذى أحداً .

وهنا تنتهد العجوز من وراء الباب وتقول :
يا لالقديسين فى السماء أنت فى ضائع . حذار أيها الأعزاء . أن
الشر واقع . واقع لا محالة .

— ٦ —

جاء الأطباء . — لاجوفو برانى فى أحد أيام الآحاد . ولم أكن أتوقع
مجيئه كان فى بزة عسكرية مضيئة يصاء فوقه حيرى ، وحذاءين
طويلين من الجلد النميز . قال وهو يقبض على يدي . مسلماً فى حرارة
الشباب :

— لقد جئت أراك . وأنا أسمع أنباءك كل يوم . وقد سزمت مند
حين ، أن أراك فتفتح قلوبنا كما يقولون . إن الأمور فى المدينة مملة للغاية .
فايس هناك إسان واحد جدير بتبادل الحديث معه . بالله ! إن المكان حار .
فال ذلك وزرع سترته فوقه فى فيمسه الحريرى ثم عاد يقول .

— بارميفى العزيز . لتتحدث سعا .
وكنب أشعر بالملل وأتوق إلى سحبة غير سحبة النعاشين فسر فى

حقاً أن أراه . قال وهو يجلس على فراشي :

— أنا ، قبل كل شيء ، أشاركك الشعور بكل قلبي . وأحمل في نفسي احتراماً صيقاً لطريقتك في الحياة . فأمرك مأخوذ في المدينة على غير وجهه ، وليس هناك من يفهمك لأن المدينة مليئة بوجوه الخنازير التي وصفها جوجول . ولكنني أدركت من أنت يوم الزهرة الخلوية . أنت روح نبيل . أنت رجل شريف كبير العقل . وأنا أحترمك وأعد مصالحتي إياك شرفاً . فلا بد أنك مررت بأزمة روحية بالغة الحرج حتى استطعت أن تحول حياتك هذا التحول المبالغ الحاد كما فعلت . وعليك الآن دون شك أن تحمل عقلك وقلبك عناء لا ينقطع حتى تعيش وفق معتقداتك دون أن تحيد عنها قيد أنملة . والآن قل لي بربك ، ألا تظن أنك لو كنت بذات ما بذلت من قوة الإرادة والعزم والجهد في شيء آخر ، كأن تحاول أن تكون أستاذاً كبيراً أو فناناً . أم يكن ذلك أدعى إلى أن يحمل حياتك أوسع وأعنى وأكثر إنتاجاً ؟

تحدثنا ، ولما اعطف الحديث إلى العمل اليدوي أبدى هذه الفكرة : وهي أنه من الضروري ألا يستعبد القوى الضعيف . وأن الأقلية لا ينبغي أن تعيش نميلاً على الأغلبية ، تنص أصنى الرحيق . أعنى بذلك أن الجميع دون استثناء — ان القوى والضعيف . والفني والمفبر . ينبغي أن يشاركوا جميعاً في الكفاح من أجل الأسود . فيناضل كل رجل لنفسه . وليس في هذا السبيل وسيلة للتسوية بين الناس خير من

العمل اليدوي والخدمة المفروضة على الجميع . قال الطبيب :

- فأنت تظن إذن ان الجميع دون استثناء ينبغي ان يستخدموا في

العمل اليدوي ؟

- اجل .

- ولكن الا تظن إذا كان على جميع الناس ، حتى العظماء من

المفكرين والعلماء ، ان يشار كوا في الصراع من اجل الوجود ، كل رجل

لنفسه . فقاموا يكسرون الأحجار ويطولون السقوف - الا تظن

في ذلك تهديدا للتقدم الإنساني ؟ فسألت :

- أين هذا الخطر ؟ إن التقدم يقوم على أعمال المحبة والتحقيق التام

للقانون الخلقى . فاذا لم تستعبد أحداً . وإذا لم تكن حملا على أحد . فاذا

ترجو بعد ذلك من تقدم .

قال بلاجوفو وقد احتد فجأة وانتصب واقفا :

- ولكن مهلا . لو أن القوقعة في صدفتها شغلت بتكميل نفسها

طاعة للقانون الخلقى أتسمى ذلك تقدماً ؟ قلت مغضباً :

- كيف تقول هذا ؟ إنك إن لم تكاف جارك أن يطعمك

ويكسوك ويحميك ويدفع عنك أعداءك فان ذلك هو التقدم وسط حياة

تقوم على العبودية . إني لأرى ذلك هو التقدم حقاً ؛ بل لعله أن يكون

هو وحده التقدم الممكن . التقدم الضرورى .

- إن حدود التقدم العالمى الذى هو أمر مشترك بين الناس جميعاً .

حدود لا نهائية ؛ وإذن فسيبدو لي من الغريب أن نتحدث عن تقدم
« ممكن » محدد حاجتنا وتصوراتنا الموقوتة . قلت :

— لو أن حدود التقدم كانت لا نهائية كما تقول فإن ذلك يعنى أن
نايتها غير معينة ، فكر كيف يمكن أن تعيش دون أن تعرف معرفة
دقيقة لماذا تعيش

— ولماذا لا يكون الأمر كذلك ؟ « إن عدم معرفتك » ليهتم فيك
من السأم . تابعته « معرفتك » . إنى أرق سلماً لسمى تقدماً أو حضارة أو
ثقافة . وأظل أصعد وأصعد دون أن أعرف إلى أى غابة أفسد . ولكن
للحياة قيمتها ما دامت من أجل هذه السلم الرائعة . ولكنك أنت تعلم
بالدقة لماذا تعيش — إنك تحيا كي لا ترى جماعة من الناس تستعد . أخرى .
وحتى ترى أن الفنان ينال من الغذاء الطيب فدرما ينال الرجل الذى خلط
له اصباغه . وهذه هى البورجوازية . هذا هو جانب المطبخ من الحياة .
ليس مما يثير الاشتزاز ان يكون هذا غابة الوجود ؟ بل إذا كان من
الحشرات ما يأكل غيره فليأكله . وليذهب بها الشيطان . اما نحن فلا
نحتاج ان نفكر فيها . فميرها إلى الفناء والعفن مهما نحاول ان نغذيها
من العبودية . وإنما ينبغي علينا ان نفكر فى الف سنة العظيمة التى
تنتظر الإنسانية فى المستقبل البعيد .

كان بلاجوفو يجادلنى فى حرارة . ولكن كان يبدو عليه ان فكرة
خارجية ما تبعث فيه الاضطراب . قال وهو ينظر إلى ساعته :

- إن اختك لن تأتي . لقد كانت في بيتنا امسر وقالت إنها ستأتي
 لتراك . ثم مضى يقول : إنك تلج في الحديث عن العبودية . ولكنها
 مسألة خاصة والانسانية جادة في حل هذه المسائل كلها تدريجياً .
 وأخذنا نتحدث عن التطور . ففقت إن كل إنسان يكون بنفسه
 فكرته عن الخير والشر . وهو لا ينتظر أن تحل الانسانية الأمر حلاً
 يخضع للتطور التدريجي . ثم إن التطور عصا ذات طرفين . فإلى جانب
 النمو التدريجي الأفكار الانسانية . هناك نمو تدريجي لأفكار من نوع
 آخر . لقد اندثرت العبودية ونمت الرأسمالية ومع ما بلغته افكار التحرير
 من ذروة عليا . فإن الأغلبية ما زالت تطعم الأفاية ونكسوها وتحببها
 كما كانت تفعل أيام باتي . بينما نظام هي جائرة عريانة ليس لها ما يحببها .
 ولتدق أوضاع الأسور . إذا سببر مع ما ربه آكي وحركاتكم . لأن
 فن الاستعباد قد تطور ايضاً نظوراً تدريجياً فنحن لا نجد الآن خدمنا
 في الاصطبلات . ولكننا نجعل للعبودية أشكالاً أكبر تهذيباً . ونحن
 على أية حال نستطيع أن نبررها في كل حالة على حدة . الآراء عندنا
 لا نعدو أن تكون آراء . ولكننا الآن في نهاية القرن التاسع عشر
 استطعنا أن ننقي على الطبقات العاملة كل ما نكره : أعمال جسمانية .
 لم نحجم أن نفعل ذلك . وبررنا عمانا بقوانا إنه لو قدر على صفوة الناس
 أي على المفكرين وكبار العلماء ، أن يبدوا وقتهم في مثل هذه الأعمال ،
 فإن التقدم يصبح في خطر شديد .

وفي هذه اللحظة دخلت أختي ، فأصابها اضطراب وقلق حين
رأت الطبيب ، وأخذت حينها تقول إن الوقت قد أزف لتعود إلى البيت
إلى جوار أبيها . قال بلاجوفو في حرارة وهو يضع يده على قلبه :
— كليب طرا الكسيفنا ! ماذا يحل بأبيك لو أنك قضيت نصف
ساعة مع أخيك ومعى ؟

كان بلاجوفو واحداً من أولئك الرجال البسطاء ، يستطيع أن
يبعث في غيره ما عنده من مرح . فكرت أختي لحظة ثم بدأت تضحك
وتضحك وقد استولت عليها سعادة مباغتة كما فعلت يوم الزهرة الخلووية .
فخرجنا إلى الحقول ، وورقنا على الحشيش . وأخذنا في الحديث ونحن
ننظر إلى المدينة حيث راحت النوافذ المواجهة للغرب تبدو ذهبية في ضوء
الشمس الغاربة .

منذ ذلك الحين كانت أختي تأتي بعد بلاجوفو في كل مرة يجي فيها .
فيحي كل منهما الآخر وكانا أقامهما لم يكن متوقعاً كانت أختي تصل
وأنا أجادل الطبيب . وقد بدا على وجهها الفرح والتطلق في إعجاب
وتطلع . فيخيل إلى أن عالمها جديداً أخذ يتكشف أمام عينيها في بطاء .
عالمها لم تره من قبل حتى في أحلامها . وهي الآن تحاول أن تراه بالظن ،
فإذا لم يأت الطبيب كانت ساكنة حزينة . وإذا بكنت أحياناً وهي
جالسة على سريرى . فقد كان بكاءها لأسباب لم تذكرها .

وفي شهر آب (أغسطس) أمرت أراديش أن تذهب إلى سكة الحديد .

وقبل أن « نساق » خارج المدينة يومين جاء أبى ليرانى . فجلس دون أن ينظر إلى ، ومسح وجهه متباطئاً ، ثم أخرج من جيبه الجريدة المحلية . وقرأ وهو يضغط على كل كلمة مضغطاً مقصوداً : أن أحسد أترابى فى المدرسة . وهو ابن مدير بنك الدولة . قد عين رئيساً للكتاب فى مكتب وزير المالية ، ثم قال وهو يطوى الصحيفة :

— والآن تأمل نفسك . فأنت شحاذ أفاق وغد . إن الناس جميعاً يسعون إلى التعلم ، حتى الطبقة العاملة والفلاحين . كى يصبحوا به قوما مهذبين . أما أنت — وأنت واحد من آل بولوزنيف . وسليل أجداد ذوى شهرة ونبل — فتذهب تشرخ فى الوحل . ثم قال فى صوت مختنق وهو يقف : — على أنى لم آت إلى هنا لأحدثك . فقد نفضت منك يدى وانتهى الأمر . ولكنى جئت لأعلم ابن اختك الآن أيها الوغد . فقد تركتنى بعد الغداء . والساعة الآن قد جاوزت الثامنة ولكنها لم تعد بعد . إنها لتخرج فى هذه الأيام دون أن تخبرنى . وهى لم تعد تحترمنى كما يجب . إننى أرى فى ذلك تأثيرك القذر الكريه . ابن هى ؟

كان يحمل فى يده مظلمته المألوفة . وكنت قد أخذت على غرة ووقفت جامداً منتصباً كتلميذ . انتظر أن يضربنى أبى . ولكنه رآنى وأنا أنظر إلى المظلة . ولعل ذلك جعله يمالك نفسه . وقال :

— عيش كما تريد ، فإعدت أدعوك .

تهامست مريئى العجوز من وراء الباب :

— يا إله السماء ! أنت فتي ضائع . إن قلبي ليسع بمصيبة مقبلة . إننى

لأحس ذلك .

وذهبت أعمل فى الخط . وقد تعاقب الريح والمطر طوال شهر آب . وكان الجو رطباً بارداً ، وقد جمع القمح فى الحقول ، أما فى المزارع الكبيرة حيث الحصد بالآلات فقد كَوِّمَ القمح أَكْوَاماً ولم يوضع فى زكائب . ولا زلت أذكر تلك الأكوام الكثيرة يشتد قوامها يوماً بعد يوم ويفرّخ فيها الحب . كان العمل شاقاً وقد أفسد علينا المطر المنهمر كل شئ وفقنا إلى إنجازه . ولم يكن يرخص لنا فى الإقامة أو النوم فى أبنية المحطة . بل كان علينا أن نأوى إلى أكواخ رطبة من الطين سكها الفعلة طوال الصيف ، فلم أكن أستطيع النوم ليلاً لشدة البرد وللبق الزاحف على وجهى ويدي . وحين كنا نعمل قريباً من الجسور كان الفعلة يحترشون ليحاربوا النقاشين الذين كانوا يرون فى ذلك نوعاً من الرياضة . فكانوا يوسعونا ضرباً ويسرقون الفراجين ويعملون على إغاضتنا وإثارتنا لحربهم بأن يفسدوا عملنا كما كانوا يفعلون حين ياطخون مراقب الإشارة بالطلاء الأخضر . وزاد صنوف شقائنا هذه ان راديش لم يعد ينتقدنا أجورنا بانتظام : فقد أُنيط طلاء الخط كله بمقاول . فنزل عنه لآخر ، وكاف الثانى راديش أن يقوم به لقاء وساطة قدرها عشرون فى المائة . وكانت الصفقة نفسها غير مربحة . ثم جاءت الأمطار ، وضاع الوقت ، فكنا لانعمل شيئاً بينما كان على راديش أن ينتقد عماله أجورهم كل يوم . فكان العمال الجائعون

يكادون يتضاربون وإياه ، ويدعونه غشاشا ومصاص دمه ويهوديا ، اما راديش المسكين فكان يتحسر ويرفع يديه إلى السماء . ولا يفتأ يذهب إلى السيدة شراكوف يقترض منها المال .

- ٧ -

جاء الخريف بمطره ووحله وقتامه ، وحلت معه فترة خمول ، فكنت أظل في البيت ثلاثة أيام من الأسبوع دون عمل . أو أقوم بأعمال غير الطلاء ، كالخفر لاستخراج الصابورة نظير عشرين كوبكا في اليوم . وقد ذهب الطبيب بلاجوفو إلى بطرسبرج . ولم تعد أختي تأتي لرائي . وأصبح راديش ملق في سريره مريضاً يتوقع كل يوم أن يوافيه الأجل .

وكان مزاجي خريفاً أيضاً . ولعل ذلك يرجع إلى أنني حين أصبحت عاملاً ! أرا إلا الناحية الساتية من حياة مدبنتنا وكنت في كل يوم اكشف آسوأ جديدة تنبئني إلى الأسوأ فقد بدا لسكان المدينة جميعاً وضعا فسا همهم التفكير في خدعة ذبئ . وسواء في ذلك من كنت أسقطه من نظري سابقاً . ومن كنت أجده على حظ من التهذيب . وكنت نحن الفقراء مخدع ونغالط في احسابات . وشركت في الردهات الباردة . وفي المطابخ نتظر ساعات . وكنا نشتم ونعبل معاملته سبئة . وفي الخريف . كذا على أن أورق جدران المكتبة ونرفتيه في النادي وقد دفعوا إلى في الحجرة سبعة كوبكات . ونكبت طربوا مني أن أعطيهم إيصالا باتني عشر كوبكا ، وحين رخصت ذلك قال لي سيد محترم ذوه منظار ذهبي ، ولعله أحد رؤساء الخدم :

— أيها الوغد ، سأطرحك أرضاً إذا قلت كلمة أخرى .
ولكنه اضطرب واحمرّ وجهه حين همس أحد الخدم في أذنه بأن
ابن پولوزنيف المهندس ، قمالك نفسه لساعته وقال :
— لعنه الله .

وفي الحوانيت كانوا يبيعوننا — نحن العمال — اللحم فاسداً ، والدقيق
عفناً ، والشاي خشناً . وفي الكنيسة كانت الشرطة تدفعنا ، وفي
المستشفيات كان المساعدون والمرضات يقرموننا الغرامات . فإذا
أعجزنا الفقر عن رشوتهم قدّم إلينا الطعام في أطباق فذرة . وفي مكتب
البريد كان أحقر الموظفين يرى من واجبه أن يعاملنا معاملة الحيوان .
وأن يصيح بنا في خشونة ووقاحة قائلاً :
— انتظروا . لا تهجموا هكذا داخل المكتب .

بل إن الكلاب كانت تعادينا . وتندفع نحونا في حقد غريب .
ولكن أهم ماراعنى في وضعى الجديد هو فقدان العدالة . أو ما يسميه
الناس « نسيان الله » . فلا يكاد يمر يوم دون أن أغيب . فصاحب الحانوت
الذى يبيعنا الزيت ، والمقاول ، والعمال ، والعملاء أنفسهم — كل هؤلاء
يفشون . أما حقوقنا فقد كان المفهوم أنها شيء لا يدخل في حساب أحد ،
فإذا ذهبنا نطلب أجورنا كان علينا أن نطلبها كأننا نسأل إحساناً ، ونحن
وقوف حاسرى الرؤوس عند الباب الخلقى .

كنت أورق إحدى غرف النادى ، وهى مجاورة للمكتبة ، وفي

إحدى الأمسيات وقد كدت أذهب دخلت ابنة دولشيكوف وهي تحمل رزمة من الكتب . انحنيت لها فقالت وقد عرفتني حينها وبسطت يدها .

— آه ، كيف أنت ؟ أنا سعيدة جداً برؤيتك .

وابتنست وقد بدا عليها الاستغراب والارتباك وهي تنظر إلى جلبابي وإلى دلو العجين والأوراق على الأرض ، فارتبكت وارتبكت هي الأخرى ، وقالت :

— اغفر لي تحديقي اليك ، فقد سمعت عنك كثيراً . وخاصة من الطبيب بلاجوفو فهو شديد الاهتمام بك . ولقد لقيت أختك وهي فتاة حبيبة رقيقة . ولكني لم أستطع أن أهديها إلى أن حياتك البسيطة ليس فيها ما يروع . بل أنت على الضد أخلق رجال المدينة بالاعجاب . ثم نظرت مرة أخرى إلى دلو العجين والأوراق وقالت :

— وقد طلبت إلى الطبيب بلاجوفو أن يجمعني بك . ولكنه نسي أو شغل عن ذلك . وعلى أية حال فقد اجتمعنا الآن . وكم يسرني أن تروني فتحدث ، وكم يشوقني هذا الحديث ! ثم قالت وهي تمد يدها :
— أنا إنسانة بسيطة ، وأرجو أن تأتي وتراني في غير احتفال .
وليس أبي هنا فهو في بطرسبرج .

ثم ذهبت إلى غرفة المطالعة ، وأنا أسمع حفيف ثوبها ، فلما عدت إلى البيت قممت وقتاً طويلاً وأنا لا أستطيع أن أنام

وفي أثناء ذلك الخريف كان يهدى إلى روح كريم بين الحين والحين هدايا من الشاي والبطيخ والبسكويت والطير المشوى ، راغباً أن يرفه بها وجودى . وكانت كارپوفنا تقول ان جندياً مجاب الهدايا ، وان لم تعلم من أين . وكان من عادة الجندى أن يسأل : هل أنا بخير ؟ وهل أجد عشاء كل يوم ؟ وهل عندى ملابس مدققة ؟ وحين بدأ الصقيع جاء الجندى فى غيبتى ومعه وشاح ناعم منسوج باليد ، تنبعت منه رائحة رقيقة لا تكاد تحس ، وقد حذرت اسم ملاكى الحارس إذ كان للوشاح رائحة زئبق الوادى ، وهى عطر أنيونا بلاجوفو الحبيب

وباقتراب الشتاء كثر العمل ، وأصبحت الأشياء أكثر مرعاة . وعاد راديش إلى الحياة ، وأخذنا نعمل معاً فى كنيسة المقبرة ، حيث كشطنا الحراب المقدس لنطليه بالذهب . وكان ذلك عملاً نظيفاً ، هادئاً ، أو كما قال عنه رفاقنا : عملاً طيباً . وكنا نستطيع أن نتجز فى اليوم جانباً كبيراً منه ؛ وكذلك كان الزمن يمر بسرعة دون أن نشعر به . ولم يكن هناك سباب أو ضحك أو مشاحنات ؛ فقد كان المكان يفرض الهدوء والأدب ، وبهية المرء الأفكار الهادئة الجادة . واستغرقنا العمل فكنا نجلس أو نقف دون حركة كالتمثيل . وكان الصمت الخيم يناسب المقبرة ، فإذا اسقطت أداة أو اندلنى زيت المصباح ، كان الصوت عالياً مزعجاً . يحدو بنا إلى الانتفات لنرى ما حدث . وبعد صمت طويل قد يسمع المرء نمتة مثل طنين النحل هى صلاة الجنازة تقرأ همساً فى الرواق على

جسد طفل ميت . أو يبدأ نقاش يرسم على القبة قرأ حوله نجوم في صغير هادى ، فاذا ذكر أنه في كنيسة قطع صغيره فجأة ، أو يزفر راديش وهو يفكر : « كل شيء قد يحدث . كل شيء قد يحدث » ، أو يسمع فوق رءوسنا رنين جرس بطيء حزين ، فيقول النقاشون : إن ذلك لا بد أن يكون لرجل غنى أتى بمجته إلى الكنيسة .

كنت أقضى النهار في هدوء الكنيسة الصغيرة ، وفي المساء ألعب البليارد أو أذهب إلى المسرح في حلتى الصوفية الجديدة التى اشتريتها بحال كسبته من كدى . وكانوا قد بدأوا يعرضون المسرحيات ، ويقيمون الحفلات الموسيقية فى بيت آل أشوجين ، وكان راديش يرسم المناظر بنفسه . وقد حدثنى عن المسرحيات واللوحات الحية عند آل أشوجين ، فكنت أصغى اليه وأحسده ؛ كانت بى رغبة ملحة فى المشاركة فى التجارب ، ولكنى لم أجروء على الذهاب إلى بيت أشوجين .

وعاد الطبيب بلاجوفو قبل عيد الميلاد بأسبوع ، فاستأنفنا مجادلاتنا وكنا نلعب البليارد فى المساء . وكان من عادة حين يلعب البليارد أن يتزع سترته ، ويفك عن رقبته أزرار قميصه ، ويحاول أن يبدو مثل رجل عرييد حقا . وكان يشرب قليلا ولكن فى صخب ، وينفق فى حانة رخيصة مثل الفولجا أكثر من عشرين روبلا فى الليلة .

وجاءت أختى مرة أخرى أترانى . فلما التقينا أبدى كل منهما دهشته ولكنى كنت أستطيع أن أرى من وجهها السعيد المذنب أن هذه

الاجتماعات لم تكن وليدة الصدفة . قال لى الطيب ونحن نلعب البليارد فى إحدى الليالى :

— اقول ، لم لا تزور الآنسة دولشيكوف ؟ انت لا تعرف ماريا فيكتوروفنا ، إنها مخلوق ذكى رائع بسيط .

فأخبرته كيف لقيني ابوها المهندس فى الربيع ، فضحك الطيب وقال :

— هذر . إن المهندس شيء وأما هي فتشيء آخر ، والحق ايها الرفيق الطيب ، انك لا ينبغي أن تؤلمها ، اذهب والقها يوما . دعنا نذهب مساء غد . اذهب ؟

أقنعنى . وفى المساء التالى لبست حلتى الصوفية ، وتهيأت فى شيء من الاضطراب لزيارة الآنسة دولشيكوف . لم يبد لى فى الخادم من التعالى والرهبة ، وفى الأثاث من الثقل . ما بدا لى صباح جئت أطلب عملا . كانت ماريا فيكتوروفنا تتوقع مجيئى . خفيتنى كأنى صديق قديم ، وسلمت علىّ بقبضة يد حارة صديقة . كانت ترتدى ثوبا رماديا ذا أكمام واسعة ، وكان شعرها مصففا تصفيفه سميت حين أصبحت بعد سنة بدعا فى مدينتنا « بأذان الكلب » . كان الشعر مسرّحا على الأذان ، مما جعل وجه ماريا فيكتوروفنا يبدو أعرض مما هو ، فكانت ماريا جميلة رشيقة ، وإن لم تكن صغيرة السن . فظهرها يجعلها فى الثلاثين ، وإن لم تعد الخامسة والعشرين .

قالت وهي تدعوني إلى الجلوس :

- يا للطبيب العزيز . كم أنا مدينة له بالشكر ، فلولاه لم تكن
لتجىء . إني أموت سأمًا . فقد ذهب والدي وتركني وحدي . ولست
أدرى ماذا أفعل بنفسى . ثم بدأت تسألني أين أعمل . وكم أكسب ، وأين
أسكن . سألتني :

- أنفق ما تكسبه عليك وحدك .

- أجل . قالت :

- أنت رجل سعيد . فإن شر الحياة كله يأتي فيما يبدو لي ، من السأم
والكسل ، والفراخ الروحي ، وتلك أشياء محتومة إذا كان المرء يعيش على
حساب غيره من الناس . لا تظن أنني أظاهر فأنا مؤمنة بما أقول . فالغنى
يجلب البلادة والتعاسة . هم يقولون أكسب الأصدقاء بروة حلال
ولكن ليس هناك على العموم ما يمكن أن يسمى ثروة حلالا .

ونظرت إلى الأثاث وفي نظرتها تعبير جاد بارد كأنما كانت تحصيه .
ثم عادت تقول .

- إن للترف والرفاهة قوة ساحرة . وهما يغردان حتى بأقوى الرجال
ارادة . وقد كنت أعيش أنا وأبي عيشة فقيرة بسيطة . وهأتذا ترى
الآن كيف نعيش .

ثم قالت هم هزة من اكتفيا .

- أليس ذلك غريباً؟ إننا تنفق عشرين ألف روبل في السنة .

هنا في الريف : قلت :

- لا ينبغي أن ننظر الى الترف والرفاهة على أنها ميزة محتومة لرأس المال والتعلم . فمن الممكن فيما يبدو لي أن نوحّد بين رفاهة الحياة وبين العمل مهما يكن شاقاً قذراً . إن أباك غني ، ولكنه كان - على حد قوله - ميكانيكياً بل مجرد عامل تزييت .

فابتسمت وهزت رأسها في تشكك وقالت :

- إن أبي يأكل الخبز مغسوساً في الجمعة الرخيصة أحياناً . ولكنه يصدر في ذلك عن النزوة وحدها .

ثم دق جرس فنهضت واستمرت تقول :

- إن الأغنياء المعلمين ينبغي أن يعملوا مثل غيرهم . وإذا كان هناك من الترف شيء فينبغي أن يحدّد الجميع سبيلاً إليه . ولا ينبغي أن تكون هناك امتيازات . على أن هذا القدر من الفاسفة يكفي . فحدثني بشيء مطرب . حدثني عن النقاشين . كيف هم ؟ مضحكون ؟

جاء الطبيب . وبدأت أتحدّث عن النقاشين ، وأنا أشعر بضيق وأتكلّم في وقار واهتمام كأنني عالم إنثرفاني . وحكى الطبيب أيضاً بضع حكايات عن العمال . فكان يترنّح ويصيح ويقع على ركبتيه ، وحين أخذ يمثل رجلاً سكيراً ألقى بنفسه على الأرض . كان ذلك كله جيلاً كأنه مسرحية . وقد ضحكنا كثيراً حتى بكنا من الضحك

ثم لعب بلاجوفو على البيان ، وغنى بصوته العالى الدرجة . ووقفت ماريا قريبا منه تخبره بما يغنى وتصلح له أخطائه حين يخطئ . قلت :

— لقد سمعت أنك تغنين أيضا . فصاح الطيب :

— أيضا !! إنها مغنية بارعة ، فنانة . وأنت تقول : أيضا . حذار .

حذار . فأجابت :

— لقد كنت جادة فى الدراسة ، ولكنى تركت ذلك الآن .

تم جلست على مقعد منخفض وقصت علينا قصة حياتها فى بطرسبرج ، وأخذت تقلد المغنين المشهورين ، وتحاكي أصواتهم ولوازمهم ، وخططت لى وللطيب فى مجموعتها رسمين لم يبلغا حد الجودة ولكن كانت فيهما ملامح منا . وكافت تضحك وتندرد وتغير قسمات وجهها تغييرا مضحكا . وكان ذلك كله أشبه بها من الحديث عن الثروة غير العادلة . وبدأ لى أن ما قالته عن الثروة والترف لم يصدر عنها وإنما كان مجرد محاكاة . إنها ممثلة هزلية بارعة . وكنت أقارنها بفتيات مدينتنا فلاتيت المقارنة بها واحدة منهن حتى أنيوتا بلاجوفو الجميلة الرزينة . فقد كان الفرق بينهما شاسعا كالفرق بين الوردة البرية ووردة الحديقة .

وبقينا للعشاء ، فشرب الطيب وماريا نبيذا أحمر ، وشبانيا . وفهوة مزجت بكونياك ، وأخذا يصفقان الأقداح ، ويشربان نخب الصداقة والفظنة والتقدم والحرية . ولا يسكران وإن علت وجهيهما حمرة ، وأخذا يضحكان لغير سبب حتى بكيا ضحكا ، وقد شربت أنا أيضا

من التبذير الأحمر حتى لا أشد عنها . قالت الأنسة دولشيكوف :

— إن أصحاب العبقرية والطبائع الموهوبة من الناس يعرفون كيف يعيشون وكيف يسلكون في الحياة طريقهم ، ولكن العاديين أمثالي لا يعرفون شيئا ولا يستطيعون شيئا . وليس أمامهم إلا أن يلقوا بأنفسهم في تيار اجتماعي عميق ويسلموا له قيادهم . قال الطبيب :

— أمن الممكن أن نجد ما ليس موجوداً ؟

— إنه ليس موجوداً لأننا لا نراه .

— أترين ذلك ؟ إن التيارات الاجتماعية من خلق الأدب الحديث .

وهي لا توجد عندنا .

وبدأ نقاش . فقال الطبيب :

— ليس عندنا الآن شيء من الحركات الاجتماعية العميقة ، ونحن

لم نعرفها من قبل . لقد ابتدع الأدب الحديث جملة أشياء ، وابتدع في حياة القرية مفكرين من العمال ، ولكن اذهبوا في قرانا جميعا فلن نجد غير السيد (منخر الصفيق) في سترته أو قفطانه الأسود يخطيء أربع مرات في كلمة واحدة . إن الحياة المدنية لم تبدأ عندنا بعد . ولا يزال بيننا من الوحشية والعبودية ما كنا نعانيه منذ خمسة قرون مضت . أما الحركات والتيارات فكلها أشياء تافهة صيدانية قد مزجت بعصالح مبتذلة همها القرش ولا يستطيع المرء أن يحملها على محمل الجد . قد تظنين أنك كثيرة ، حركات اجتماعية كثيرة . وقد تسمعين ، يا فتاة ، تكلمين جبالاً ،

على الطريقة الحديثة لنحل مسألة تحرير الحشرات من العبودية ، ونحرّم شرائح اللحم — وأنا أهنئك على ذلك يا سيدتى . ولكن علينا أن نتعلم وتعلم وتعلم ، وعندئذ سيكون عندنا وقت طويل للحركات الاجتماعية ، فلمّا لم نصل الى مستواها بعد ، وأنا أقسم أننا لا نفهم عنها شيئاً . قالت ماريافيكتوروفنا :

— انك لا تفهم واسكنى أفهم . يا لله ! كم أنت متعب الليلة !
— ان علينا أن نتعلم وتتعلم . ونحاول ان نجمع من المعارف ما يمكن جمعه لأن الحركات الاجتماعية الجادة لا تكون الا قرينة المعرفة . وسعادة البشرية المقبلة تقوم على العلم . لنشرب نخب العلم . ثم قالت ماريافيكتوروفنا بعد فترة من الصمت والتفكير العميق :

— ان هناك شيئاً واحداً لا شك فيه . ان الحياة ينبغي أن تنظم على نحو آخر . فإنها كانت الى الآن شيئاً لا قيمة له . فلنترك الحديث عنها .
وحين غادرنا ماريافيكتوروفنا كانت ساعة الكنيسة تدق الثانية .
سألنى الطبيب :

— هل رافقتك ؟ أليست فتاة حبيبة ؟

وتناولنا العشاء عند ماريافيكتوروفنا يوم عيد الميلاد . وكنا نذهب لنراها كل يوم أثناء العطلة . ولم يكن هناك أحد غيرنا . وقد صدقت حين قالت انه ليس لها فى المدينة أصدقاء الا الطبيب وأنا . وكنا نقضى أكثر الوقت فى الحديث ، أو يجلب الطبيب كتاباً أو مجلة فيقرأ لنا بصوت

عال . وقد كان الطبيب - آخر الأمر - أول رجل مثقف لقيته . وأنا لا أستطيع أن أصفه بسعة العلم ولكنه كان دائماً سخياً بعلمه لأنه كان يريد غيره أن يعلموا . وحين كان يتحدث عن الطب لم يكن مثل أطبائنا المحليين ، بل كان حديثه يترك في النفس أثراً جديداً فريداً ، فكنت أحس أنه يستطيع أن يكون عالماً حقاً لو شاء . ولعله الشخص الوحيد الذي كان له على تأثير في ذلك الوقت . فقد اخذت حين القاءه وحين أقرأ ما يعطيني من كتب ، اشعر بحاجة الى المعرفة اروح بها مشقة عملي . وقد بدا لي غريباً ان لم اكن اعلم مثلاً ان العالم كله مكون من ستين عنصراً . ولم أكن اعلم ما هوزيت الطلاب ، ولا ادرى كيف استطعت ، ان احيا دون معرفة هذه الأشياء . ثم لقد سمعت بي ادياً معرفتي بالطبيب . فقد اعتدت ان اجادله ، وان اتمسك بفكرتي ، غير اني بفضلها اخذت ارى تدريجاً ان كل الأشياء لم تكن واضحة عندي فحاولت ان احدد ما اعتقده قدر الطاقة حتى تكون ابحاث ضميري دقيقة لا يكتنفها غموض . على ان الطبيب على علمه وظرفه وسبقه لأهل المدينة جميعاً في الفضل لم يبلغ حد الكمال على نحو ما . فقد كان على شيء من الخشونة والغرور في عاداته وفي تحاييله على ان يجعل من الحديث مناقشة ؛ وحين كان يخلع معطفه ويجلس في قيصه ويعطى الخادم منحة . كان يخيل لي دائماً ان الثقافة لا تشغل منه الا جانباً . اما الباقي فلا يزال تترياً متوحشاً .

وسافر بلاجوفو بعد العطلة الى بطرسبرج مرة اخري . رحل في

الصباح وجاءتني اختي بعد العشاء تزورني . فجلست في صمت دون أن تخلع فراءها ، وكانت شاحبة للغاية ساهمة النظرة . ثم اخذت ترنحف وكان يبدو أنها تقاوم مرضاً ما . قلت :

— لا شك أنك أصبت ببرد . فامتلات عيناها بالدموع ، ثم نهضت وذهبت إلى كارپوئنادون أن تقول لى كلمة ، وكأني أهنتها . ثم سمعتها بعد قليل تتحدث فى نبرة التوبيخ المر .

— أينها المربية ، لم عشت حتى الآن ؟ لماذا ؟ خبرينى . ألم أضيع شبابى ؟ لقد قضيت خير أعوامى وليس لى عمل إلا إعداد قوائم الحسابات ، وصب الشاى وعد الكوابك ، دون أن أفكر مرة أن هناك شيئاً خيراً من هذا فى الدنيا . مريبتى احاولى أن تفهمينى ! إن لى أيضاً رغبات إنسانية وأنا أريد أن أعيش ، ولكنهم جعلوا منى خازنة بيت . إنها فظاعة ! فظاعة !

ثم قذفت مفاتيحها نحو الباب فسقطت فى غرفتى ترن . وكانت مفاتيح صوان الآنية ، والمخزن ، والقبو ، وصندوق الشاى ، وهى المفاتيح التى كانت اى تحملها . صاحت مريبتى العجوز فرعة :

— أَوْه ! أيها القديسون فى السماء ! أيها الباركون ! وحين أرادت اختى ان تذهب جاءت الى غرفتى لتأخذ مفاتيحها وقالت :

— عفواً ، ان هناك شيئاً غريباً يساورنى فى هذه الأيام .

عدت في إحدى الليالي متأخراً من عند ماريا فيكتوروفنا فوجدت شرطياً شاباً في حلة جديدة جالساً في غرفتي إلى جانب المنضدة يقرأ . قال وهو يقف وينصب قامته :

- أخيراً . هذه هي المرة الثالثة التي جئت فيها لأراك . فقد أمر المحافظ أن تذهب للقائه صباح غد في التاسعة تماماً . فلا تتأخر . ثم أخذ مني وعداً مكتوباً بتنفيذ أوامر صاحب السعادة وذهب . وقد كان لزيارة الشرطي هذه . ولدعوة المحافظ غير المتوقعة أسوأ تأثير على . فأنا منذ حدثني انطوى على خوف من الجنود والشرطة وموظفي المحاكم . وقد عذبني القلق كأنني قد ارتكبت جريمة حقاً . ولم أستطع أن أنام . وانزعجت كذلك مريتي وبروكوفي فلم يستطيعا النوم . وزاد الأمور سوءاً أن أذن مريتي كانت تؤلمها فظلمت ثني . وقد علا صراخها أكثر من مرة . وحين سمع بروكوفي أنني لا أستطيع النوم جاء إلى غرفتي في هدوء ومعه مصباح صغير نجاس قريباً من المنضدة . قال بعمد شيء من التفكير :

- ينبغي أن تأخذ قطرة من الكونياك . ففي وادي الدموع هذا لا تصح الأمور إلا إذا تناولت منه قطرة . ولو صب في أذن أي منه شيء لتحسنت حالتها كثيراً .

وفي الساعة الثالثة تهيأ بروكوفي للذهاب إلى المسلخ يحضر شيئاً من

اللحم . وقد ذهبت معه أشغل وقتي الى الساعة التاسعة إذ كنت أعلم أن النوم لن يمس جفوني حتى الصباح . ومشينا على ضوء مصباح . وقد سار وراءنا غلامه نيكولكا وهو صبي في الثالثة عشرة ذو وجه تنتشر فيه نقط زرقاء ويبدو كأنه وجه قاتل . كان يسوق عربة ويستحث جوادها بصيحات نكراء . قال بروكوفي في الطريق :

- ربما عوقبت عند المحافظ فكل امرئ مرتبة ، وهناك مرتبة المحافظ . والأرشمندريت والضابط والطبيب ، وكل مهنة مرتبة ، وأنت لا تحافظ على مرتبتك وهم لن يسمحوا لك بذلك .

كان المساخ وراء المقبرة . وكنت إلى ذلك الحين لم أراه إلا من بعيد . وهو مكون من ثلاث بنيات حولها سور قائم . فإذا كان الصيف وهبت الريح من ذلك الاتجاه انبعثت من المسلخ رائحة كريهة غالبة . لم أستطع أن أرى الحظائر حين دخلت القناء . بل كنت أتمس بطريق بين الخيول والعربات الفارغة والموسوفة باللحم ، وكان في المكان رجال يمشون والمصاييح في أيديهم وهم يصبون اللعنات في اشمزاز ، فشارك بروكوفي ونيكولكا في اللعنات القذرة وشاع في المكان طنين مستمر من السباب والسعال وصهيل الخيول .

وكنت أشم في المكان ريح نجثث والروث . وكان الثلج يذوب وقد اختلط بالطين ، وبدا في الظلام كأنني أخوض بركة من الدم .

وحين ملأنا العربة باللحم ذهبنا إلى حانوت الجزار في السوق . وقد

بدأ النهار يبرخ وأخذ الطهاة بسلاهم ، والعجائز بدثرهن يتقاطرون
واحداً بعد واحد . وقد أمسك بروكوفى بالشاطور فى يده . وارتدى
مزرعاً أبيض ملطخاً بالدم ، وأخذ يقسم أقساماً مخيفة . ويرسم الصليب
وهو متجه شطر الكنيسة ، ويصيح حتى ليعم صياحه السوق ، ويحلف
أنه يبيع اللحم بثمنه بل بخسارة . وكان بروكوفى يغش فى الميزان والحساب ،
ويرى الطهاة ذلك ولكن صراخه كان يبههم فلا يعترضون وإنما يقولون
عنه إنه رجل يستحق الشنق . وكان بروكوفى خليقاً أن يرسم فى بعض
أوضاعه وهو يرفع شاطوره ويهوى به . وكان يردد باستمرار هذا
الصوت « هاك » فى غضب ، وكنت فى الحق أخشى أن يقطع رأس
واحد من الناس أو يده .

بقيت فى دكان الجزار الصباح كله ، وحين ذهبت أخيراً إلى المحافظ
كان لقراي ربح اللحم والدم . وكنت فى حالة ذهنية اليق فيها للقاء دب
وأنا لا أحمل من السلاح إلا هراوة . لازلت اذكر السلام الطويلة ذات
السجادة المخططة ، والموظف لابس الردينجوت ذى الأزرار اللامعة ؛
الذى أشار لى فى صمت إلى الباب بكتا يديه ، ودخل ليعلن قدومى .
دخلت فى الردهة وكان أثاثها باذخاً وإن تكن هى باردة خالية من
الذوق . لا تبعث فى النفس الرضا ، براياها الطويلة الضيقة بين النوافذ ؛
وستأثرها الصفراء الفافعة على الشبايبك . فلم يكن يغيب عن المرء أن
برى أن الأثاث يبقى دائماً كما هو وإن تبدل المحافظون . أشار الموظف لى

مرة أخرى يئديه الى الباب فتقدمت نحو مائدة كبيرة خضراء ، وقف إلى جوارها جنرال يحمل حول عنقه وسام فلاديمير . قال وهو يمسك في يده بخطاب ويفتح فيه حتى صار مدوراً مثل دائرة .

— قد سألتك أن تحضر يا سيد بولوزينيف حتى أقول لك هذه الكلمات : إن أباك الفاضل قد طلب شفاهاً وبالكتاب إلى نقيب أشرف الاقليم أن تستدعى ويبين لك بُؤْس مسلكك عن لقب النبيل الذي تتشرف بحمله . وقد رأى صاحب السعادة اسكندر بافلوفتش — بحق — أن سلوكك قد يكون هداماً . ووجد أن الاقتناع ربما لم يُجدِ دون تدخل من جانب السلطات . ولذا فقد أُسِرَ إلى بما اعتزم في أمرك . وأنا أوافق على قراره .

قال هذا في هدوء واحترام وهو منتصب القامة أُمَامِي كَأَن رَئِيسَهُ ولم يكن تعبيره على صورة ما من الشدة . كان وجهه مزمزماً متعباً قد غلبته التجاعيد ، وبلت تحت عينيه جيوب . وكان شعره ممسجولاً . أما سنه فكان من الصعب أن يحدد المرء في مظهره أنه في الخمسين أم الستين . وعاد يقول .

— أرجو أن تقدر تُلطف اسكندر بافلوفتش حين اتصل بي اتصالاً ودياً غير رسمي . وقد دعوتك دعوة غير رسمية . لا على أُنَى المحاظيل على أُنَى من المعجبين المخلصين لَدَيْكَ . وأنا أَسْأَلُكَ أن تبدل سلوكك وأن تعود الى تحمل الواجبات التي تناسب منزلتك والافتخار إلى مكان

آخر لا يعرفك فيه أحد ، وهناك تستطيع أن تفعل ما تريد ، وتثق بمن
الآثر السيء للمثل الذى تضربه . وإن لم تفعل فسأضطر إلى اتخاذ
أقصى التدابير .

ومر نصف دقيقة وهو يحلق فى وجهي وفه مفتوح . سألتنى :

— هل أنت نباتى ؟

— كلا يا صاحب السعادة . فأنا آكل اللحم .

ثم جلس وتناول وثيقة فأمخيت له وخرجت . ولما كان العمل قبل
الغداء لا يقنى فقد ذهبت الى البيت وحاولت أن أنام . ولكنى لم
استطع نتيجة الاشمزاز الذى سببه لى المسلخ والحديد مع المحافظ .
فذهبت أطوف حتى المساء وأنا أشعر بكآبة وانحراف . ثم ذهبت ارى
ماريا فيكتوروفنا ، أخبرتها عن زيارتى للمحافظ فنظرت إلى فى دهشة
وكأنها لا تصدق ما أقول . ثم أخذت تضحك فجأة فى مرح وصخب من
كل قلبها كما يستطيع خفافا القلب البسلاء وحدهم أن يفعلوا .
قالت صائحة وقد كادت تستاق من الضحك وهى تنحنى على النضد :

— ليتنى أقول هذا فى بطرسبرج ! ليتنى أستطيع أن أخبر بذلك

من فى بطرسبرج !

— ٩ —

كثرا الآن لقاءنا حتى لنتلقى مرتين فى اليوم أحيانا . فهى فى كل

— ٧٦ —

يوم تقريباً تخرج بعد الغداء إلى المقبرة وتنتظرني وهي تقرأ ما على الضرائح والصلبان من كتابات . وربما أنت أحياناً إلى الكنيسة ووقفت الى جانبي ترقبني وأنا أعمل . كان جديداً عالياً ومثيراً لها أن تحس الصمت ، وأن تلمس صناعة النقاشين والمذهبيين ، وأن تشهد رزاة راديش ، وأن ترانى لا أختلف فى ظاهر الأمر عن الشغالة الآخرين ، وأنى أعمل مثلهم ، فى صدرية وأحذية بالية ، وأنهم يخاطبوتى دون كلفة صاح بى مرة عامل يعمل فى أحد أبواب السقف وكانت حاضرة :

- ميشيل أحضر لى الرصاص الأبيض .

فأحضرته له وحين كنت أهبط السقالة وجدت ماريا قد خالجتها العبرات . ونظرت إلى ميتسة . قالت :

- يا لك من حبيب .

وكنت أذكر دائماً منذ الطفولة بيعاء خضراء فرت من قفصها فى بيت أحد الأغنياء وظلت تهيم حول المدينة شهراً كاملاً وتضير من حديقة إلى أخرى . وحيدة لا مأوى لها . وقد ذكرتى ماريا فيكتوروفنا بتلك البفاء . قالت ضاحكة :

ليس لى مكان أذهب إليه سوى المقبرة . فضيقى من المدينة يدفع بى إلى البكاء . ولم أعد منذ حين أحتمل أوائك الذين يقررون ويُفنون ويتناغون فى بيت أشوجين . وأختك حيصة . والآنسة بلاجوفوتكرهنى لسبب ما والمسرح لا يستهوينى فاذا أقبل بنفسى ؟

كنت حين أزورها أحمل معي ربح الطلاء والنفط ، وكانت يداي ملوثتين ، وكان ذلك يروها . فقد أرادت أن أجيئها بملابس العمل العادية ولكن وجودي كذلك في غرفة استقبالها كان يربكني ، فكنت ألبس حلتى الصوفية كلما ذهبت إليها وكأني أردت لباساً رسمياً . ولم يكن ذلك يسرها . قالت لى مرة :

— يجب أن تعترف أنك لم تعتد بعدُ دورك الجديد . فإن لباس العامل يشعرك بالارتباك والحيرة . قل لى . أليس ذلك لأنك غير واثق بنفسك ولا راض عنها ؟ أيرضيك حقاً هذا النقش الذى اخترته عملاً لك ؟ سألتنى هذا السؤال فى مرح ثم قالت :

— أنا أعلم أن الطلاء يجعل الأشياء تبدو أجمل مما هى ولكن هذه الأشياء نفسها ملك الأغنياء . وهى من بعدُ تعدّ رفقا . ثم إنك كنت تردد القول بأن الانسان ينبغي أن يكسب قوته بيديه . ولكنك تكسب مالا لا خبزاً . لم لا تلتزم حرفية ما تقول ؟ يجب أن تكسب خبزاً ، خبزاً حقيقياً . فتعرت وتبذرت وتحصد وتدرس أو تقوم بعمل متصل اتصالاً مباشراً بالزراعة . كزعى الأبقار أو الحفر أو بناء المنازل . .

ثم فتحت خزانة كتب جميلة إلى جانب منصدة الكتابة وقالت :

— أنا أقول لك هذا كله لأنى سأطلعك على سرى . أنظر . هذه مكتبتي الزراعية . وتلك كتب عن الأراضى الصالحة للزراعة . وعن حدائق الخضار . وعن فلاحه المساتين . وتربية الماشية ، وتربية النحل . وقد قرأتها

باشتياق ودرست نظرية كل شيء دراسة مستفيضة . وأنا أحلم بالذهاب إلى دوبشنيا متى بدأ شهر مارت (مارس) فالحياة هناك رائعة مذهشة ، أليس كذلك ؟ وسأقضى السنة الأولى أدرس العمل وأعتاده ، ثم أبدأ العمل الكامل في السنة الثانية دون رفق بنفسى . وقد وعدني أبى أن يمنحني دوبشنيا هدية ، وأنا أستطيع أن أتصرف بها كيف أشاء .

وأخذت تحلم بصوت عال . وقد احمر وجهها خفراً ، وامتزج ضحكها بدموعها عن حياتها في دوبشنيا . وكيف يمكن أن تستغرقها . وحسدتها فان مارت وشيك الحلول . والأيام تمضي ، وقد أخذ الثلج ينزلق عن السقوف في العصارى المشمسة المشرقة . وكانت في الهواء ريح الربيع . أنا أيضاً كنت أتوق إلى الربيع .

رأيت لأول وهلة حين قالت إنها داهية تعيش في دوبشنيا . أنها ستمضى وتركني في المدينة وحيداً . تخافني الحسد لخزانة الكتب ، وما فيها من كتب عن الفلاحة . فأنا لا أعرف شيئاً عن الفلاحة . وهى لا تعيننى فى شيء . وقد كنت أقول لها إن الفلاحة من عمل العبيد . ولكنى ذكرت أن أبى قال شيئاً شبيهاً بذلك مرة فسكت .

وبدأ صوم الأربعين . وعاد المهندس فيكتور إفانتش من بطرسبرج وكنت بدأت أنسى وجوده . أتى دون توقع لمجيئه بل إنه لم يرسل برقية . وحين ذهبت هناك في المساء كعادتي . وجدته يروح ويحيى في غرفة الاستقبال . بعد أن استحم . وقص شعره فبدا وقد نقص عمره

عشرة أعوام . كان يتكلم وقد ركعت فتاته إلى جانب حقائبه تخرج منها صناديق ، وزجاجات ، وكتباً ، وتناولها خادهم باقل . وحين رأيت المهندس نكصت على عقبي دون وعي ، ولكنه مد لي يديه ، وابتسم فكشفت ابتسامته عن أسنان بيض قوية كأنها أسنان سائق عربية . قال :

— هذا هو .. هذا هو ! أنا سعيد برؤيتك أيها النقاش العزيز . وقد أخبرتني ماريا بأمرك كله ، وأشادت بذكرك . وإني أفهمك جيداً . وأؤيدك بكل قلبي . ثم أخذني في ذراعه ومضى يقول :

— أجدر بك وأشرف أن تكون حاملاً شريفاً من أن تلوث أوراق الحكومة ، وتحمل في قبعتك شارة . وقد اشتغلت أنا نفسي بيدي في بلجيكا فكنت سائق قاطرة خمس سنوات . . .

كان يلبس سترة قصيرة وكوئين مريحين يدلف بهما وكأنه مصاب بداء الملوك . ويلوح بيديه ويدلكهما ، وهو يدندن ويهمهم ويهز كتفيه : وقد أسعده أن يعود إلى حمام الدش الذي يحبه . قال أثناء العشاء :

— لا جدال في أن فيكم — معشر النبلاء — رقة ورحمة ، ولكن إذا مارس أحدكم العمل اليدوي أو حاول إنقاذ الفلاحين ، أصبح من الغلاة . وأنت منهم لأنك لا تحتسى الفودكا . وهل يكون ذلك إلا غلوّاً ؟

فشربت من الفودكا لأرضيه . وشربت نبذاً أيضاً . وأكلنا صنوفاً من الأشياء اللذيذة التي جلبها المهندس معه : من جبن وسجق وفطائر ومخللات . وذقنا ما وصل في غيابه من الأنبذة المستوردة من الخارج .

وكانت جيدة للغاية ، ولأمر ما كانت الانبذة واللقائف تأتي المهندس من الخارج معفاة من الضرائب . كما كان يرسل اليه البطارخ دون مقابل . ولم يكن يدفع أجرا عن منزله لأن صاحب المنزل كان يورّد النفط للخط . وعلى الجملة فقد خيل إلى أنه هو وابنته يتمتعان بخير ما في الوجود دون أن يتكلفا شيئا .

عاودت زيارة منزلها ولكن سرورى بذلك كان أقل من ذى قبل . فقد كنت أحس في حضرة المهندس بالانقباض والتقيد . ولم أكن أطيق عينيه الصافيتين البرئيتين . وقد ضنقت بآرائه وبدأت لى منطقية على الاهانة . وأثقل قلبي أن اذكر انى كنت إلى عهد قريب مرءوساً لهذا الرجل الأحمر الملعوف وانه كان يسىء معاملتى دون شفقة . وفى الحق أنه كان يضع يده حول خصرتى ويربت على كتفى برفق ويؤيد طريقى فى الحياة ، ولكنى كنت أحس انه يحتقرنى كما كان يفعل من قبل ، ولم يكن يحتملنى إلا إرضاء لابنته . فلم أعد أستطيع أن اتكلم أو اضحك فى سر كما كنت أفعل ، بل أخذت اظن فى نفسى خشونة الأخلاق ، واخل طول الوقت أنتظر أن يسمينى باتلى كما كان يسمى خادمه يافل . كم تارت نفسى كبرياء العامل الرقيق ! أأذهب أنا . العامل ، النفاش . كل يوم إلى بيت هؤلاء الأغبياء الغرباء ، الذين كانت المدينة كلها تعدم أجناب . فأشرب انبذتهم الفاخرة وآكل اطعمتهم الغريبة . لم استطع أن أريح ضميرى إلى هذا الأمر . فكنت حين أذهب لزيارتهم أجتهد فى مجانة من

يمر بي في الطريق ، وانظر اليهم شردا كأنني من الغلاة حقاً ، وحين أعود
من منزل المهندس كنت أحس بالخزي من شبعي .

على أن الوقوع في الحب كان أخوف ما أخاف . فقد كانت فكرة
ذهابي الى ماريافيك توردوفنا في المساء ، تخامرني وأنا أسير في الطريق أو
أعمل أو أحادث رفاقي . وكان صوتها وضحكها وحركاتها لا تفارقني .
وكنت كلما تهيأت للذهاب إليها أطيل الوقوف امام مرآتي المكسورة
أصلح ربطة عنقي ، فتبدو سترتي الصوفية نظيفة ، واتعذب ولكني مع
ذلك احتقر نفسي لاحساسى بالضآلة . وحين كانت تصيح بي من غرفة
أخرى وتقول إنها لم ترد بعد ملابسها . وتسألني أن أنتظر قليلا . واسمع
حفيف ملابسها وهي تلبس - كنت أضطرب وأحس كأن أرض الغرفة
تسوخ تحت قدمي . وحين كنت أشاهد امرأة في الطريق كنت - وإن
بعدت - أقارن بين جسمها وجسم مارياف . فكان يبدو لي أن كل نساءنا
وفتياننا ثقيات . مخيفات اللبس . ليس لهن رواء . وكانت أمثال هذه
المقارنات تثير في نفسي إحساسا بالكبرياء . فماريافيك توردوفنا تفضلهن
جميعا . وفي الليل كانت الأحلام تجمع بيني وبينها .

وذات مرة أكلب أنا والمهندس إرييانا برمته . ثم ذكرت بعد عودتي
ان المهندس دعاني مرتين ، رفيقي العزيز . وخطر لي انهما يعاملانني وكأنني
كلب كبير شقي ابعد عن سيده . وانهما يتسلطان بي ، وانهما خليقان أن
يطرداني كما يطرد الكلب حين يصيبهما الملل متى . بدأت أشعر بالخزي

والآلم وكنت أبكى كآنى أهنت . فرفعت عيني إلى السماء وأقسمت أن
أكف ذلك كله .

فى اليوم التالى لم أذهب إلى بيت دولشيكوف . ولكن حين تقدم
المساء وخيم الظلام ، وانهمر المطر أخذت أروح وأجىء فى شارع الأعيان
الكبير . وأنا أنظر إلى النوافذ . كان كل من فى بيت أشوجين قد ناموا
إلا ضوءاً واحداً منبعثاً من نافذة فى الطابق العلوى حيث كانت السيدة
أشوجين العجوز جالسة على ضوء الشموع تطرز ، وتتخيل أنها تحارب
الأوهام . وكان يبتنا مظلماً ، أما بيت دولشيكوف المقابل له . فقد كانت
النوافذ فيه مضاءة ، ولكنى لم أستطع أن أرى شيئاً من وراء الستائر
والأزهار . ظلمت أروح وأجىء فى الشارع . وقد بللنى مطر مارت البارد .
سمعت أبى يعود من النادى ويترك الباب ، فلمع الضوء . بعد قليل فى
إحدى النوافذ ورأيت أختى تسير عجلة والمصباح فى يدها وهى تسوى
شعرها الكثيف بسرعة . ثم أخذ أبى يذرع غرفة الاستقبال . وهو
يتحدث ويدلك يديه . وقد جلست أختى هادئة فى ركن من الغرفة . غارقة
فى أفكارها لا تصغى إليه

ولم يمض وقت طويل حتى تركا الغرفة وأطفئء النور . ونظرت إلى
يمنى فوجدته قد أظلم أيضاً . وفى المطر والظلام عرتنى وحشة قاتلة .
وشعرت أنى ملقى إلى رحمة القدر . وابتلى لى أعمالى وأطماحى كلها عبثاً
باطلاً ، إذا قيست بالحاضر والمقبل من وحشتى وعذابى . وأسفاً إن

نشاط البشر وأفكارهم ليست مهمة مثل أحزانهم ، ودون دراية بما أفعل جذبت جرس باب دولشيكوف بكل قوتي وكسرتة ، وأخذت أركض في الطريق خائفاً كأنني صبي صغير ، أخشى وأظن أنهم سيخرجون إليّ على الفور وسيعرفوني . وحين وقفت ألقف أنفاسي عند نهاية الشارع لم أكن أستطيع أن أسمع إلا صوت المطر الساقط . وصوت أحد الحراس يقرع من بعيد صفيحة من الحديد .

وبقيت أسبوعاً لا أذهب إلى بيت دولشيكوف ، وبعثت حلتى الصوفية ، وغدت بلا عمل ، فعادت مرة أخرى أتضور جوعاً ، ولا أستطيع أن أكسب في اليوم إلا عشرة كوبكات أو عشرين لقاء عمل كريبه . كنت أتحبط في الوحل إلى ركبتي ، وأستنفد كل قوتي ، وأحاول أن أغرق ذكرياتي . وأن أعاقب نفسي بما أكلت من الجبن والمعلبات في بيت المهندس . ولكنني ما كنت آوى إلى فراشي مبلاً جائعاً حتى كان خيالي الجامح يحهد في رسم صور رائعة خلافة فأعترف وفدت ملكتي الدهشة بأنني أحـد حبا حاراً . فأنام ملء عيني وأنا أحس أن الحياة القاسية قد منحت جسمي القوة والشباب .

و ذات مساء بدأ الجليد يسقط في غير إبانه . وأخذت الريح تهب من الشمال وكان الشتاء قد استؤنف من جديد . ولما عدت من العمل وجدت ماريـا فيكتوروفنا في غرفتي . ترتدى فراءها وفد دست يديها في قفازين . سألتني وهي تنظر إلى بعينيها البراقتين الماحتين :

— لم لا تأتى لزيارتى ؟

غمزنى السرور فوقفت جامدا إزاءها . كما فعلت أمام والدى حين أراد أن يضربنى . وكانت نظرتها ثابتة على وجهى . فرأيت فى عينيها أنها تدرك سر هزيمتى . عادت تقول :

— لم لا تأتى لزيارتى ؟ أنت لا تريد المحبة ! هاأنذى قد أثبتك .

ثم نهضت واقتربت منى وقالت وقد امتلأت عيناها بالدموع .

— لا تتركنى فأنا وحيدة . وحيدة للغاية .

وأخذت تبكى وتقول وقد غطت وجهها بقفازها :

— انا وحيدة والحياة شاقة : شاقة للغاية . وليس لى فى الوجود أحد

سواك . فلا تتركنى !

ثم ابتسمت وهى تبحت عن مندياها لتجفف به الدموع . وصمتنا

لحظة : ثم عانقتها وقبالتها . فانغرز دبوس قبعتها فى وجهى واسال الدم .

ثم بدانا نتحدث كأنا رفيقان عزيزان من زمن بعيد . بعيد .

— ١٠ —

أرسلتنى بعد يومين إلى دوبشنيا . فسر فى ذلك سروراً لا يوصف .

وكنتم أضحك لغير سبب فى طريق إلى المحكمة وفى القطار فتخيلنى

الناس سكران . ولم تكن الأصباح تخلو من صقيع وجايد ولكن

الطرق كانت آخذة فى الاظلام ، وفوقها الغربان تنفق .

فكرت أول الأمر أن أعد الجناح الجانبي المقابل لمسكن السيدة

شبرا كوف لا قامتي أنا وماريا . ولعلكن بدا لي أن الحمام واليوم قد اتخذته
مكناً له فتنظيفه يقتضى تحطيم أعشاش كثيرة . فكان علينا أن نقيم
راضين أو راغمين ، في البيت الكبير ، في الغرف المزججة بشبايكها
المزدوجة . كان الفلاحون يسمونه قصرأ ، وكان به نيف وعشرون غرفة ،
أما أثاثه فلا يعدو بياناً وكرسي طفل ملقى في العلية . ولو أن ماريا أنت
بكل أثاثها من المدينة لما نجحنا في أن نزيل عن المكان ما يشعر به من
فراخ جليدي بارد . تحيرت ثلاث غرف صفاراً تطل نوافذها على الحديقة .
وكننت أعمل من الصباح الباكر الى وقت متأخر من الليل في وضع
زجاج للنوافذ ، وتوريق الجدران . وسد ما في الأرض من ثقب وشقوق .
وكان ذلك كله عملاً سهلاً مرضياً . وكننت من حين لآخر أجري الى النهر
فانظر هل ذاب الثلج . وكننت أحلم طوال الوقت بعودة الزراير . وفي
المساء حين كننت أفكر في ماريا كان يفيض في شعور حلو . شامل لاتعبر
عنه الكلمات وأنا أصفى الى القتران وإلى الريح العاصفة المقرقة على
السقف وكأن في العلية غولاً عجوزاً تسعل

كان 'ثلج صميكا ، وقد ثقل سقوطه في آخر مارت ولكن سرعان
ما ذاب وكان سحراً أذابه ، فاذا ما حلت أوائل نيسان (ابريل) جاءت
سيول الربيع دافقة . وسبقتها الزراير ترقزق ، والفرشات الصفرة محوم
في الحديقة . وكان الجو رائعاً ، فكننت قبيل المساء من كل يوم أمشي
الى المدينة لالتقي ماشا . وكم كان جميلاً أن أمشي على الطريق الأملس الذي

بدأ يحف وأنا حافى القدمين ! كـهـت أجلس في منتصف الطريق ، وأتظر الى المدينة . وأنا لا أقوى على الاقتراب منها ، كان منظرها يثيرني ، وكنت أتخبر في تصور موقف معارفي مي حين يعلمون بحبي . ماذا يمكن أن يقول أبي ، كان أشد ما يقلقني أن حياتي أخذت تتعقد كثيرا . وأن مقاليدها قد خرجت من يدي . وأنها أخذت تهفو بي وكأنها تصعد متطاداً يعلم الله الى أين . كنت قد تفضت يدي من التفكير في طريقة لكسب الرزق ، وفكرت - الحق أني لا أدري فيم فكرت .

اعتادت ماشاً أن تقدم في عربة . فأجلس إلى جوارها ونسوقها إلى دوبشنيا معافى تطلق وسعادة . أو ربما عدت إلى البيت بعد أن أتتظر الى الغروب وقد استولى على التعب والقنوط . حائراً في سبب تخلف ماشاً . فإذا ما وصامت الى البيت وجدت حبيتي إلى جوار البواب أو الحديقة ، وتكون قد أتت في القطار ومشت من المحطة . كما كانت رائعة ! كانت في ثوبها الصوفي البسيط ، ومظلتها المتواضعة مسع فوامها الملقوف الرشيق ، وأحذيتها الباريسية الغالية . ممثلة موهوبة تلعب دور الفتاة الريفية . كان من عادتنا ان نذهب إلى المنزل . ونفكر في تنظيم الغرف والردهات ، وفي حديقة الخضروات وخلايا النحل . وكان لدينا أفراخ وبط وأوز نحبها لأنها أطيئارنا التي نملكها . وكان عندنا حب شوفان وبرسيم وحنطة سوداء ، وبذور خضروات أعدناها للبذر . وكنا نطيل النظر اليها وتخيل ما يمكن ان تنتجه من حصاد . وكان كل ما نقوله لي

ما شاغرياً في حصافته وبراعته . تلك هي أسعد لحظات حياتي .
وتزوجنا بعد عيد الفصح بقليل في كنيسة الابرشية بقرية
كوريلوفكا . وهي تبعد ثلاثة أميال عن دوبشنيا . وقد أرادت ماش
توخي البساطة في كل شيء . فكان أشبنة العرس غلماناً من الفلاحين .
ورتل التراتيم شماس واحد . وعدنا من الكنيسة في عربة صغيرة متداعية
قادتها هي بنفسها . وكانت أختي الضيف الوحيد الذي جاء من المدينة . فقد
أرسلت إليها ماشا كلمة قبل زواجنا بيومين . وكانت ترتدي ثوباً أبيض .
وفقازين أبيضين . وكانت تكي بكاء هادئاً أثناء الاحتفال من فرط
فرحها وانفعالها . وكان علي وجهها تعبير أمومة . يمه عن طيبة لا محد . لقد
أسكرتها سعادتنا . فهي تبتسم وكأنها تنسم عطراً حلواً . وحين نظرت
إليها أدركت أن الحب . الحب الأرضي . كان في عينيها أممي شيء في
الوجود . وأنها كانت دائماً تحلم بالحب في إسرار وخفراء وان تكن عاطفتها
حارة ملتية . عانقت ماشا وحباتها . وقالت لها عني وهي لا تدري كيف
تعبير عن فرط نشوتها .

— إنه رجل طيب . رجل طيب جداً .
وقبل أن تغادرنا ارتدت ملابسها العادية ، وأخذتني الى الحديقة
تحدث في هدوء . قالت :

— لقد شق علي أبي أن لم تكتب اليه ، وكان ينبغي أن نسأله
البركة . ولكن قلبه ينطوي على سعادة بالغة . وهو يقول إن هذا

الزواج سيرفع من قدرك في المجتمع ، وإنك ستبدأ بتأثير ماريا فيكتورفنا في النظر إلى الحياة نظرة أكثر جدا . اننا لا نتحدث في المساء إلا عنك ، بل لقد ذكرك أمس فقال :

ابننا ميشيل . وقد فرحت لذلك ؛ وأظنه قد فكر في خطئه ، وأعتقد أن يضرب لك مثالا في رحابة الصدر فيبدأ بالحديث عن الصلح . ولا يبعد أن يأتي يوماً لزورك . ثم رسمت الصليب على صدرى وقالت : — حسناً ليرعك الله . ولتسعد . إن انيوتا بلاجوفو فتاة ذكية جدا . وهي تقول عن زواجك انه تجربة جديدة يتمتعك بها الله . حسناً . إن حياة الزواج ليست سروراً كلها ، بل فيها عذاب ايضا . وهذا امر لا يمكن تجنبه .

سرنا — انا و ماشا — مع أختي قرابة ثلاثة أميال . ثم مشينا إلى البيت هادئين صامتين ، كأنما كنا نلتس في ذلك راحة لنا . وضعت ماشا يدها على ذراعى . ورف علينا السلام . فنحن لا نحتاج الى الحديث عن الحب ؛ وقد أصبحنا بعد الزواج ألصق وأعز ؛ وخيل الينا أن لن نستطيع التفريق بيننا شيء . قالت ماشا :

— إن أختك شخص عزيز حبيب ، ولكن يبدو أنها طاشت معذبة لا بد أن أبالك رجل رهيب .

فبدأت أحدثها بنشأتنا أنا وأختي . وكيف كانت طفولتنا شاذة مليئة

بالعذاب . وحين سمعت أن أبى ضربنى منذ قريب ارتجفت وتعلقت بى
وهى تقول :

— لا تزدنى قولاً . هذا فظيع . فظيع .

إنها الآن لا تتركنى ، فنحن نشغل فى البيت الكبير ثلاث غرف .
فاذا حل المساء وضعنا رتاجاً على الباب الذى يفصلنا عن القسم الخالى من
البيت . كأنما يسكنه ساكن نجهله ونرهبه . كنت أصحو مبكراً مع
الفجر ، وأبدأ فى العمل فأصلح العربات . وأشقّ مران فى الحديقة .
وأحفر أحواضاً للزهر ، وأطلى السقوف . وحين حل وقت بذر
الشوفان اجتهدت أن أحرث . وأسحو الأرض . وأبذر الحب . وكنت
أفعل ذلك باعتناء . ولا أتركه كله للعامل . وبدأت أحسّ بالتعب ،
وأشعر بوجهى وقدنى تاتهب من المطر والريح الباردة الحادة . ولم يرفى
العمل فى الحقول . كنت لا أعلم شيئاً عن الزراعة . ولم تكن الزراعة
تشوقى . ولعل ذلك راجع إلى أن أجدادى لم يكرنوا من عازق الأرض
بل كان الدم الذى يجرى فى عروقى دماً مديناً خالصاً . كنت أحب الطبيعة
حبا جما . وأحب الحقول والبرارى والحدائق ، ولكن الفلاح الذى يقاب
الأرض بمحراثه . وهو يصيح محصانه التعس . وقد تمزقت ثيابه وابتلت
وحذب كتفيه . كان يبدو صورة للقوة الوحشية الخشنة القبيحة . وكنت
حين أرقب حركاته الغليظة : لا أستطيع إلا أن أفكر فى الحياة الأسطورية
الخالية التى سبقت استخدام الإنسان للنار . وكان النور المتوحش الذى

يقود القطيع . والخيول التي تجفـل في القرية ؛ تملؤني رعباً ، وكانت الكائنات الكبيرة القوية العادية من مثل كبش ذى قرون ، أو ذكر أوز صخيم ، أو كلب حراسة . تبدو لي رموزاً لقوة بربرية فظة . وكانت هذه الأوهام تقوى عندي حين يسوء الجو ، وتحيم السحب الثقيلة على الأراضي المحروثة السوداء . وحين كنت أحرث أو أبذر فيقف بعض الفلاحين وينظرون كيف أعمل . كان ذلك من شر ما ألقى ؛ حينئذ كان ينقطع شعوري بأن عملي ضروري محتوم . ويبدو لي أنني أضيع وقتي .

واعتدت أن أذهب خلال الحداثق والبراري إلى الطاحونة . وكان يديرها ستيفان وهو فلاح من كوريلوفكا ، جميل أصغر مجدول العضل ، ذو خية سوداء . لم يكن ينني بالعمل في الطاحونة . بل يظنه متعباً لا يجدي ، ولكنه كان يعيش في الطاحونة هرباً من البيت . وكان في الأصل سراًجا . ولذا لم يكن يخلو من ريح الدباغة والجلد . وهو لا يميل إلى الكلام ، بطيء ثقيل الحركة ، اعتاد أن يجلس على الشط أو عند باب الطاحونة ويغمغم ، أو . لوو . لوو . ، وكانت تزوره أحياناً زوجته وحماته تأنيانه من كوريلوفكا ، وكانتا شقراوين ناعمتين رقيقتين ، تنحيان له في خضوع وتناديانه باستيفان برفقتش . ولكنه لم يكن يجيب التحية بكلمة أو إشارة . بل يذهب حيث اعتاد أن يجلس ، ويغمغم في هدوء : (أو . لوو . لوو) ثم يحجم الصمت ساعة أو ساعتين ، فتتهامس زوجته وحماته وتنهضان

وتنظران اليه رقبانه حتى ينظر اليهما ، فتنحيان له في خشوع وتقولان
في صوت عذب :

— وداعا يا استيفان بروقاش .

وتذهبان . فينحى ستيفان ما تركتا له من صرة كحك أو قيص .
ويزفر ويشير إلى ناحيتهما وهو يقول :

— أولئك النساء .

كانت الطاحونة تدار بكتا العجائين ليل نهار ، وكنت أعاون
استيفان وأميل إلى ذلك العمل . وحب كان يذهب كان يسرني أن أشغل
مكانه .

— ١١ —

حلّ فصل الطرق الموحلة . بعد أن كان الجو ساحراً مسرقاً دافئاً .
فأخذ المطر ينهمر ، والبرد يشتد على طرل أيار (مايو) ، وكان صوت أحجار
الطواحين وسقوط المطر يبعث في النفوس الكسل والنعاس . ويزيد هذا
الشعور اهتزاز الأرض ورائحة الدقيق المنتشرة في المكان كله . وكانت
زوجتي تأتي مرتين كل يوم في سرة فراء قصيرة ، وحذائين طويلين من
المطاط ، وتردد هذه العبارة كل مرة :

— أتسمى هذا صيفاً . إنه أسوأ من تشرين الأول (أكتوبر) .

وكنا نشرب الشاي معاً ، أو نعد الحساء ، أو مجاس ساعات طويلة
في صمت ونحن نظن أن المطر لن ينقطع . وقضت مائتا الليل في الطاحونة

مرة ، حين ذهب ستيفان إلى السوق ، فلما صحونا لم نعرف الوقت لأن السماء كانت مابدة . ولكننا كنا نسمع صياح الديكة في دوبشنيا ، وزعيق سمان الماء في الرارى . كان الوقت مبكراً جداً . وذهبت أنا وزوجتى إلى البركة ، وجذبنا الشبكة التى كان ستيفان قد وضعها أمامنا فى اليوم السابق فكان فيها فرخ كبير ، وأنكوش ينشب أظفاره فى غضب ، قالت ماشا :
- خل سبيلهما . دعهما يسعدان أيضاً .

بدا لى ذلك النهار طويلاً جداً ، وكأنه أطول أيام حياتى ، إذ كنا قد صحونا جد مبكرين ، ولم يكن لدينا شىء نعمله . وعاد ستيفان قبل الغروب فرجعت إلى بيتى الربقى . قالت ماشا :
- لقد جاء أبوك اليوم إلى هنا .

- أين هو ؟

- ذهب ولم أقابله .

ولما رأت صتى وحزنى لأبى قالت :

- ينبغى أن نخضع للمنطق ، فأننا لم أدابله وانم أرسلت إليه كلمة أطلب إليه فيها ألا يزعجنا مرة أخرى . وألا يعاود زيارتنا .

أسرعت خارج البوابة ، أجدت فى السير نحو المدينة كي أترضى أنى . كان الطريق موحلاً زلقاً ، واجو بارداً . وقد حل بى الأسى لأول مرة منذ زواجى . وخطر لى وقد أتعبنى النهار الطويل أنى لم اكن أعيش كما ينبغى أن أفعل . وزاد بى التعب وأخذ يغاب على الضعف والهمود . ولم تكن

بى رغبة للحركة أو التفكير ، فبعد أن سرت حيننا ، لوحت ييدى يائسا
وعلت .

فى وسط الفناء وقف المهندس فى ستره جلدية ذات قلنسوة وهو
يصيح :

— أين الأثاث ؟ كان هنا أثاث امبراطورى ، ورسوم ، وزهريات ،
فلم يعد منها شئ . ما هذا ؟ لقد اشتريت المكان بأثاثه .

وقربا منه وقف موسى ، وكيل السيدة شبراكوف ، يتحسس
قبعته ، وهو فتى نحيف فى الخامسة والعشرين مجدر الوجه ، ذو عينين
صغيرتين وقصتين . وكانت إحدى صفحتى وجهه أكبر من الأخرى كأنه
أطلمها بكثرة الرقاد عليها . قال فى غباء :

— أجل يا صاحب السعادة إنك اشتريت دون الأثاث . أنا أذكر

ذلك بوضوح

فصاح به المهندس وقد احمر وجهه ، وأخذ يرتجف غضبا :
— اسكت .

فتجاوبت صيحته فى الحديفة .

— ١٢ —

كان ينيرنى وأنا أشتغل فى الحديقة أو الفناء ، أن يقف موسى ، ويداه
وراء ظهره ، يحملق فى بعينه الصغيرتين الوفتين . حتى لا ترك عملى
وأذهب .

قال لنا استيفان أن موسى كان عشيق السيدة شبرا كوف. وكنت قد لاحظت أن الذين كانوا يقصدونها لمال ، كانوا ياجئون إلى موسى أولاً. وقد رأيت مرة فلاحاً من الوقادين تلوث جسمه كله بالسواد ، وهو يجنو عند قدمي موسى . وحينما كنت أراه يقدم المال بعد حديث هامس : دون أن تعلم سيدته بشيء ، فأدركت أنه يقرض المال لحسابه . اعتاد موسى أن يصيد في حديقةتنا . بل تحمت نوافذنا . وأن يسرق الطعام من مخزننا . ويستعير حيواننا دون استئذان . فكان ذلك يفضبنا ويشعرا أن دوشنايا ليست لنا . فذشحب ماتنا وتقول :

- أينبغى أن نعاشر هذه المخلوقات ثمانية عشر شهراً أخرى !

وكان ايفان شبرا كوف : الاين ، حارساً في الخط ، يصيبه النحول والضعف في الشتاء . فيسكر من كآس فودكا واحدة . ويحسّ البرد حين يتحول عن الشمس ، وكان يكره كسوة الحارس الرسمية ، ويحسّ الخزي منها . ولكنه كان يمد شغله مربحاً إذ يسرق الشموع ويبيعها . وقد بعث فيه وضعى الجديد خايطا من الازهشة والحسد والأمل الغامض في أن يقع له مثل ما وقع لى . كان يتبع ماشا بعيني معجب . ويسألنى عن غذائى في هذه الأيام . وعلى وجهه القبيح الهزيل تعبير حزين نشوان وهو يقبض أصابعه وكأنه يتامس بها سعادتى . ويقول فى اضطراب . وهو يعاود إشعال لنافته . فقد كان حينما وقف أحدث ربكة . إذ كان لسانه دساسة كبريت كلما له لبشعل لنافته واحدة .

— أقول ، أيها النفع القليل ، أقول . إن حياتي بنيسة للغاية .
فكل جندى صغير يستطيع أن يهتف بي : يا حارس ، تعال . وعندى فى
الخط من هؤلاء كثير . إن حياتي مُحطمت . وقد حطمتنى أمى . لقد
سمعت فى القطار طيباً يقول : إذا كان الأبوان قاسدين ، أصبح
أبناؤهما مكبرين أو مجرمين . وهذا صحيح .

جاء إلى الفناء مرة يترنح ، وعيناه تهبان دون غاية ، وأنفاسه متقلبة ،
وهو يضحك ويبكى ، ويقول فى نوع من الخبل كلاماً يثقل عايه نطقه
لم أستطع أن أسمع منه إلا هذه الكلمات :
— أمى . أين أمى ؟

وكان يولول مثل طفل يبكى لأنه فقد أمه بين حشد من الناس .
فأدخاته الحديقة . وأرمدته تحت شجرة . وتناوبت أنا وما سارعايته على
مدى النهار والليل . كان مريضاً . وأخذت ماساً تنظر فى انتمزاز إلى وجهه
الشاحب المبال . ونقول :

— أينبقى أن نعاثر هذه المخلوقات عمانية عشر سنة ، أكأحرى ؟ هذا
فضيع . فضيع .

وكم كلفنا الألاحون من عناء وكم لقينا فى البدء — فى الربيع —
من أسياء تحيب الأمل . حبب كئنا ترق إلى السعادة افكرت زوجتى
أن تبني مدرسة . وأعدتها استن ولدا . فوافق مجاس المقاطعة على الرسم .
ولكنه اقترح أن تبني المدرسة فى كوريلوفكا . وهى القرية الكبيرة

التي تبعد عنا ثلاثة أميال ، ثم إن مدرسة كورييلوفكا حيث كان يتعلم أولاد فرى أربع منها دوشيا . كانت عتيقة لا تفي بالحاجة ، وقد تداعت أرضها حتى ليخشى الأطفال أن يدوسوا عليها في نهاية مارت أصبحت ماشا مديرة لمدرسة كورييلوفكا كما أحبت أن تكون . وفي أوائل نيسان (ابريل) عقدنا ثلاثة اجتماعات إقليمية . وأقنعنا الفلاحين أن المدرسة القديمة لم نعد لائقة . وأن من الواجب بناء مدرسة جديدة . وقد شهد هذه الاجتماعات أيضاً وخطب الحاضرين أحد أعضاء مجلس الاقليم ، ومفتش التعليم الأولى . وبعد كل اجتماع كان الناس يحشدون حولنا ، ويطلبون دلواً من الفودكا . فتضيق أنفاسنا في الجمع . ونعود إلى البيت ساحطين نحس شيئاً من الخزي . وأخيراً تزع الفلاحون بأرض تقوم عليها المدرسة . وبفضل مواد البناء من المدينة في عرباتهم . وما إن بذرت حبوب الربيع حتى أخذت العربات في أول أحد تغادر كورييلوفكا ودوبشنيا تحضر الأجور لوضع الأساس . كانت تذهب في الفجر . وقد تقدم الليل . ومجيء الفلاحون سكارى ولكنهم يقوون ان التعب أضعفهم .

ولبت المطر والبرد طوال أبار . وكأنا ذلك عن عمد منهما . ففسدت الطرق وعمق فيها الوحل . وكانت العربات في عودتها من المدينة تعرج . ويا للفرع . على فنائنا . فيظهر عند البوابة حصان . قد انفرج ما بين رجله وأخذ بطنه الكبير يعلو ويهبط ، وتستجمع قوته قبل أن يدخل الفناء ويصرف ، ثم تظهر عربة ذات أربع عجلات عليها حمل مبلل موحل من ألواح طولها

عشر ياردات . يسير إلى جانبه فلاح قد التف في ثوبه خشية المطر .
وأخذ يخوض البرك غير متبهر مواطني القدم . وقد وضع طرف ثوبه في
حزامه . ثم تظهر عربة أخرى بالواح وثلاثة بعروق . ورابعة .. ويمتليء
الفناء أمام البيت تدريجاً بالخيول والآلواح والعروق . وتقطع أبصار
الفلاحين . من رجال ونساء لفات رؤوسهم . وعاقبت أطراف أنوابهم -
تقطع إلى نوافذنا بنظرات فاسية . يتصايحون . ويصرخون على أن تنزل
اليهم سيدة البيت ، ويسبون ، ويحلفون . ويقف ، ويسى في ركن فيخيل
الينا أن إخراجنا كان بسرهم . يعيح الهالاحون :

– لن نحمل أ كثر مما حملنا . كدنا نوت تعباً . لنذهب هي
فتنقل بنفسها .

كانت ماسا نشعب وتقزع وتطش أهمهم قد يهاجرون البيت في أية لحظة . فترسل اليهم نقوداً يشترون هادلو آمن الفودكا . فينقطع الفجيج -- وتأخذ العروق الطويلة في مفادرة الفناء وهي تمذبذب

وعندما كنت أذهب لأرى النساء، كان زوجتي مضطرب
وتقول

١٠٠
١٠١
١٠٢
١٠٣
١٠٤
١٠٥
١٠٦
١٠٧
١٠٨
١٠٩
١١٠
١١١
١١٢
١١٣
١١٤
١١٥
١١٦
١١٧
١١٨
١١٩
١٢٠
١٢١
١٢٢
١٢٣
١٢٤
١٢٥
١٢٦
١٢٧
١٢٨
١٢٩
١٣٠
١٣١
١٣٢
١٣٣
١٣٤
١٣٥
١٣٦
١٣٧
١٣٨
١٣٩
١٤٠
١٤١
١٤٢
١٤٣
١٤٤
١٤٥
١٤٦
١٤٧
١٤٨
١٤٩
١٥٠
١٥١
١٥٢
١٥٣
١٥٤
١٥٥
١٥٦
١٥٧
١٥٨
١٥٩
١٦٠
١٦١
١٦٢
١٦٣
١٦٤
١٦٥
١٦٦
١٦٧
١٦٨
١٦٩
١٧٠
١٧١
١٧٢
١٧٣
١٧٤
١٧٥
١٧٦
١٧٧
١٧٨
١٧٩
١٨٠
١٨١
١٨٢
١٨٣
١٨٤
١٨٥
١٨٦
١٨٧
١٨٨
١٨٩
١٩٠
١٩١
١٩٢
١٩٣
١٩٤
١٩٥
١٩٦
١٩٧
١٩٨
١٩٩
٢٠٠

وقد استغل الفلاحون حراجة موقفنا فطلبوا ثلاثين كويكا عن الحمل .
 وإن قلت المسافة بين النهر الذى يجلب منه الرمل وبين البناء عن ربع
 الميل وكنا فى حاجة إلى أكثر من خمسمائة حمل . ولم يخل الأمر من
 اختلافات لا تنتهى . ومشاحنة واستجداء لا يتقطع . أغضب ذلك زوجتى
 فأخذها مقاول البناء بتروف . وكان سيخاً فى السبعين ، من يدها وقال :
 - اسمعى ما أقول . أحضرى لى رمالاً وسأجلب أنا عشرة رجال
 فأنهى العمل فى يومين . اسمعى لما أقول .

فأحضر الرمل . ولكن مريوماز وأربعة أيام وأسبوع . ومع
 ذلك فقد بقى هناك خندق يتأهب أعد ليوضع فيه الأساس . صاحت
 زوجتى نائرة :

- سأجن . يالهم . من أشقياء . يالهم من أسقياء

وفى أثناء هذه المضايقات كان فيكتور أفاتش يحضر لزيارتنا
 ويجلب معه أكياساً مملوءة بالأنبذة والمشيبات . ويقضى وقتاً طويلاً
 فى الأكل ، ثم ينام على الشرفة ويشخر فيهب العمال رءوسهم ويقولون :
 - إنه بخير !

ولم تكن ماشانسر بزياراته . ولم تسكن نثق به . وإن كثراً ،
 تستشير . فإذا صاحباً بعيد قيلولة عميقة منحرف المزاج . أخذ يتحدث فى
 استهزاء بشؤوننا المنزلية . ويأسف على شرائه دوشنيا . وعلى ماجشمة
 من مسائر . وكأمة ، ساداً الكينة ، الاله . نفمة فائمة وآشكو له

فيتناب ويقول إنه يجب أن يجلد الفلاحون . وكان يسمى زواجنا والحياة التي نحياها ملهاة ، واعتاد ان يقول إنها تزوة طارئة . قال لى :

— لقد سبق لماريا أن فعات ذلك مرة ، فتخيلت نفسها مغنية أوبرا ، وهربت منى ، فكلفني العثور عليها شهرين : وقد أنفقت في ذلك يا عزيزى ألف روبل على البرقيات وحدها .

كان قد كف عن وصفى بأنى من الغلاة ، وتسميتى بنقاش البيوت . ولم يعد يقرنى على حياة العامل . بل كان يقول :

— أنت ممكة غريبة : أثت شذوذ ، وأنا لا أنبأ بشيء ولكن حياتك ستنتهى بكارثة .

أصبح نوم ماشاغياً ، فكانت نجلس إلى جوار نافذة نخدعنا تفكر . ولم تعد تضحك أو تتندر أثناء العشاء . وكنت أتعذب . فاذا أمطرت السماء نفدت كل قطرة إلى فلي كئها رصاصة . ووددت لو ركعت على ركبتي أمام ماشا ، واعتذرت لها عن الجو . وحين كان الفلاحون يحتشدون في الفناء متذمرين . كنت أشعر بأن ذل ذبي . كنت أجلس الساعات الطويلة في مكان واحد لا أفكر إلا في روعة ماشا . وكنت مدلهابجها . أطيح فرحاً بكل ما تفعل وتقول . وكانت هى تميل إلى أعمال البيت الهادئة . وكانت تهوى أن تقضى الساعات في القراءة والدراسة . وكانت تدهشنا جميعاً بمعارفها عن الفلاحة ، وهى التى استقت معارفها من الكتب وحدها ، وكانت ، نصائحها نافذة دائماً وإذا طبقت ، لم نعرف ،

نفسل . وكان لها من بعد الحسّ المرفف ، والنزوق السليم ، والعقل
لراجح الذي هو وقف على الصفوة ممن نشثوا نشأة عالية من الناس .
كان من الحزن حقاً لمثل هذه المرأة . بعقلها السليم المنظم أن تعيش
في الوسط المضطرب الذي كنا نعيش فيه بمشاغله التافهة . وهرائه البذء
وكنء أخط ذلك ولا أستطيع مثابها أن أنام . كنء أضرع إلى الفلاحين
ألا يصيحوا . وأعطيهم القودكا ، وأرشوهم . وأعدهم باجاة كل رغباتهم .
وكم ارتكبت من مثل هذه الحماقات !

لم يعد المطر يسقط وجفت الأرض . فكنت أخرج في الصباح إلى
الحديقة ، إذ الطل يلعب على الأزهار ، والطيور والحشرات تتصايح ، والسماء
خلو من السحاب نالحديقة والبرية والنهر جميلة كاملة : لولا أن أذكر
الفلاحين والعربات والمهندس . وكنء أركب أنا وماشا عربية ونطوف
بالشوفان نرعى نموء . كانت تسوق وأجلس أنا في الخلف . فأرى كنفيها
المحدثين قايلًا ، وأرى الذسم يعبث بشعرها . كانت تصيح بالمارة :

— الزم اليمين .

قلت لها مرة :

— كأنك سائق عربية .

— ربما إن جدى والد المهندس كان حوذكًا .

ثم قالت ملتفتة إلى وقد بدأت تقلد الحوذكى في صياحه وغنائه !

— ألم تكن تعلم ؟

قامت في انفسى وأنا أصغى اليها :
- الحمد لله . الحمد لله .

ثم أذكر الفلاحين والعربات والمهندسين .

- ١٣ -

عاد الأطباء لاجوفو يأتينا على دراحة . وأخذت أختى نتردد علينا .
وعندنا فنحدث عن العمل اليدوى والتقدم . وعن الألف السنة الغامضة
التي تاتطر الانسانية في مستقبلها البعيد . ولم يكن الطبيب راضياً عن
حياتنا لأنها كانت تقطع عايننا مناقشاتنا . وقال : إنه لا يحذر بالرجل الحر
أن يحترث أو يحد أدنى بربر الماشية . وإبه سبأنى حين نكور فيه
هذه الأسكار الأولية للصراع في سبيل الوجود أمرا يترك للحيوان
والآلات . فبخار ارجال خاوا تاما للبحر العالمى . وكانت أختى تسألنى
كل مرة أن بعدد إلى الباب . مبكرة . فادا تأخرت أو قضت معنا ليلتها
تألم لذلك المأساة . كانت ماسا نهول لها دائماً عاقبة .

أى هذا أنت والله ها انتى مضحك للغاية

فتوافقها حتى تمالك .

اجل أنا أقرباً . مضحك . ولكن ماذا يدي . وأنا لا اقوى

على تربية رعيان لشرفى . أتمأ بأني ارتكب إنما

ألمى به . كلهم ابن التدريه . إذ لم أمارسها من قبل . فكنت في
المساء أمام وأنا جالس في السرفة . يضحكون منى . ويوقظوننى

- ١٠٣ -

و يجلسوننى لالعشاء . و بعد غلبني النعاس . و أخذت أرى الأضواء والوجوه
والأطباق من خال سحابة . و أسمع أصواتهم دون أن أفهم ما يقولون
كنت أبكر في الصبح و آخذ منجلى و أذهب إلى المدرسة فأعمل يومى
كاه هناك

و كنت أحس أيام العطل أن زوجتى وأخنى تخفيان عنى سبباً . بل
كان يدوأنهما متحبنائى . و كانت دروسى رفيعة كأمهدها معى دائماً ولكنها
كانت تملون فى نفسها على فكره حابده لم نحدثنى بها . و ليس من
شك فى أن ضيفها بالفلاحين قد زاد . و أن الحياة أخذت تنقها رويداً
رويداً . ولكنها لم تعد تثنى شكواها . بل أصبحت تقبل على الحديث
مع الطاب أكبر مما تفضل . و لمست أدري لآك سبباً

كانت عادة الناس أن يأتوا إلى البيت إلى البيت . و يقدم لهم
الفودكا . حتى الفتيات كن يشاركن فى الشراب . و لكننا لم نبق على
العادة . فكان الحاصدون و النساء يأتون إلى الفناء و يبقون إلى وقت متأخر
من المساء فى انتظار الفودكا . ثم يذهبون وهم يسبون . و هنا كان وجه
مانسا يتقاصر ، و تفرق فى العصمت ، أو تهمس للطبيب نائرة :
-- و حوش . . برارة .

كان النازلون الجدد بالفريفة لا يتقبلون استقبالا وديا ، بل بشىء
من العداء . كالتلاميذ الجددى المدرسة . فكان الناس أول الأمر ينظرون
الينا على أننا أغبياء صعاف العقول قد استرينا الضيعة لأننا لم نكن نعرف

سبيلاً أخرى لا نفاق النقود . كانوا يضحكون منا . وكان الفلاحون يرعون ماشيتهم في مرعانا ، بل حتى في حديقتنا . ويسوقون أبقارنا ويحولنا إلى القرية ثم يطالبوننا بتعويض . وكانت القرية كلها تأتي إلى فنائنا ، وتهتف معلنة أننا مسنق في الحصاد جانبي الأرض المشتركة التي لا نملكها . ولما كنا لا نعلم حدودنا بالدقة . فقد كنا نأخذ بقولهم وندفع غرامة . ثم ظهر من بعد أننا كنا على حق . وكانوا يقشرون أشجار الليمون الصغيرة في غابتنا . وكان فلاح من دوشنيا مراب يبيع القودكا دون ترخيص . يرشو عمالنا ليساعدوه على غشنا بأفطع طرق الخيانة . فيستبدل بالجديد من عجلات عرباتنا ، عجلات قديمة . ويسرق محارثتنا ثم يعود فيبيعها لنا . وغير ذلك كثير . على أن شر الأمور جميعاً كان بناء كوريلوفكا ، فهناك كانت النسوة يسرقن الألواح ، والآجر ، والاردواز . والحديد ليلاً ، فلما أجرى الوكيل ومساعدوه التفتيش . فرض مجاس القرية على كل امرأة روبلين غرامة ، ثم سكر الوكيل ومساعدوه جميعاً بالمال . وحين كانت ماشا تطلع على شيء من ذلك كانت تقول للطبيب ولأختي :
- أي بهائم هؤلاء ! هذا فظيع . فظيع .

وقد سمعنا غير مرة تقول إنها آسفة لعزمها على بناء المدرسة ؛ فيحاول الطبيب أن يتدخل بقوله :

- يجب أن تفهمي ، أنك حين تبني مدرسة أو تقومين بعمل خيري ما ، فليس ذلك رعيّاً للفلاحين بل هو في سبيل الثقافة والمستقبل

وكما ساءت حال الفلاحين كان ذلك أدعى إلى بناء مدرسة . يجب أن تفهم ذلك .

وكان صوته تعوزه الثقة بما يقول ، بل لقد خيل لي أنه يحقّد على الفلاحين حقد ماتا عليهم .

ترددت ماشا وأختي على الطاحونة ، وكاتنا تقولان هازلتين إنهما ذاهبتان لتلقيا نظرة على ستيفان لأنه فتى جميل . ويظهر أن ستيفان كان يقصر صمته وتحفظه على الرجال وحدهم ، فإذا صحب النساء تحرر وأفاض في الكلام . ذهبت مرة إلى النهر استحجم . فسمعت عن غير عمد حديثاً . وكانت ماشا وكلوباترا كلتاها في ثوب أبيض ، قد جلستا على الشط في ظل مصفاة وارفة . ووقف ستيفان قريباً منهما يقول ويداه وراء ظهره :

— ولكن هل الفلاحون من البشر؟ كلا . إنهم — وعذرا — وحوش بهائم ، لصوص ، ما هي حياة الفلاح ؟ طعام وشراب ، وصراخ من أجل غذاء أرخص . وصياح في الحانات ، في غير حديث مهذب ، أو خلق أو أدب . إنه ليس سوى بهيم جاهل يعيش في القذارة ، وتعيش زوجته وأولاده في القذارة . وينام في ملابس العمل ، ويتناول البطاطس من الحساء بأصابعه ، ويشرب الجعة بخنافسها لأنه لا يريد أن يشق على نفسه بإخراجها . فاعترضت أختي :

— فقرم هو السبب .

- أى فقر؟ إنه يعاني نوعاً من العسر دون شك، ولكن هناك
 فرقاً بين عسر وعسر ياسيدتى. فالرجل السجين أو الأعمى أو المبتور
 الساقين - كل هؤلاء معذور خايق برحمة الله، ولكن الرجل الحر الذى
 سلمت له حواسه، فصحت له عينان ويدان وعافية؛ ماذا ينبغي بالله بعد
 هذا؟ الأمر ياسيدتى محزن. إنه الجهل لا الفقر. فإذا حاولتم أيها الخيرون
 المتعلمون أن تتفضلوا فتساعدوه أنفق مالكم فى السكر كخزير. أو
 فعل ما هو أنكى ففتح بالكم حانة وبدأ يسلب الناس أموالهم. تقولين
 الفقر؟ فهل يعيش الفلاح الغنى عيشة أرق رقيماً ما؟ إنه يعيش مثل
 الخنزير أيضاً. إنه - وعذراً - جلف مهوش، غبي بطئ. ذو وجه أحمر
 منتفخ؛ إنه يجعلنى أود لو ضربته على عينه. ذلك الوغد. انظرى إلى
 لاريون فى دوبشنيا. فهو غني ولكنه مع ذلك يقشر الأشجار فى غابتكم
 كما يفعل الفقراء تماماً. وهم حيوان بذيء اللسان. وأولاده مثله فى
 البذاءة. فإذا سكر ارتعى فى الوحل ونام. إنهم جميعاً ياسيدتى شئ لا قيمة
 له. والإقامة معهم فى القرية هى الجحيم بعينه. أنا لا أضيع حياة القرية؛
 وكم أشكر الله رب السماء أن يسر لى غذائى وكسائى. وجعلنى رجلاً حراً
 أنا أستطيع أن أعيش حيث أحب. وأنا لا أريد أن أحيى فى القرية، ولا
 يستطيع أحد أن يفرض على الحياة فيها. يقولون: إن لك زوجة؟ ويقولون
 يجب أن تعيش فى بيتك مع زوجتك: لم؟ إننى لم أبع نفسى لها.
 سألت ماشا:

- قل لى باستيفان ، هل كان زواجك عن حب؟

فأجاب ستيفان مبتسماً :

- أى حب هناك فى القرية ؟ إذا شئت أن تعلمى ياسيدتى فهذا

هو زواجى الثانى . ولست فى الأصل من كوريلوفكا بل من زاليجوش .

وقد جئت كوريلوفكا حين تزوجت . لم يشأ والدى أن يقسم الأرض بيننا ،

وكنا خمسة . فنزلت عند رغبته ، وانفصلت عنه وذهبت أعيش فى قرية

أخرى مع أهل زوجتى . وقد ماتت زوجتى الأولى شابة .

- وبأى علة ماتت ؟

- الحماقة . كانت تمجلس وتبكى . تبكى دائماً دون سبب حتى

قتلها البكاه . كانت تشرب نقيع الأعشاب لتزيد جمالها ، ولكن ذلك قد

إنلف حشاها دون شك . وكبف كانت زوجتى الثانية فى كوريلوفكا ؟

امرأة فروية فلاحه . لاغير . غششت حين خطبتها ، إذ رأيتها فتاة

شابة حسنة النظر نظيفة . وكانت أمها على حظ من النظافة ؛ تشرب

القهوة ، فكانت نظافة الأسرة أم باء لى على الزواج . وفى اليوم التالى

جلسنا للعشاء فطلبت من حماتى أن تحضر لى ملعقة ، فجاءتنى بواحدة

ولكنى رأيتها تمسحها بإصبعها . قلت فى نفسى ، هذه نظافتهم إذن ؛ أقت

معهم سنة ثم رحلت .

ثم قال بعد فترة صمت :

- لعلى كنت أصيب فى زواجى بفتاة مدنية . يقولون إن الزوجة

عون لزوجها. ولكن ما حاجتى إلى عون؟ إتنى أستطيع أن أدبر أمرى
بنفسى ولكنى أريد امرأة تمدنى حديثاً رشيداً هادئاً، بدل أن تقضى
الوقت كله تضحك (هى . هى . هى) مافية الحياة إذا خلت من حديث
عذب؟

وقطع استيفان كلامه فجأة.. وباد إلى لازمته الكثيبة الرتيبة .
« أو . لو . لو » كان معنى ذلك أنه لحنى .

وكرر تردد ماشا على الطاحونة . وكان واضحاً أنها تستمتع بأحاديثها
مع استيفان . كان يشتم الفلاحين عن احلاص وافتناع وذلك ما جذبها
اليه . فاذا عادت من الطاحونة صاح في إثرها الأبله الذى يعنى
بالحديقة :

— بالاشكا . مرحى يا بالاشكا .

ونبحها كما ينبح الكلب : باو . باو . فتقف وتحقق فيه . وكأنها
تجد فى نباح الأبله جواباً لتفكيرها . وربما أثار من انتباهها ما يثيره
سباب ستيفان . وتدلف الى البيت فتجد فى انتظارها أنباء سيئة . فأوز
القرية قد أفسد الكرنب فى حديقة المطبخ مثلاً ، أو أن لاريون سرق
الاعنة . فتهرز كتفها مبتسمة وتقول .

— ما عسى أن ننتظر من مثل أولئك الناس؟

كانت محنقة قد أخذت تتجمع فى نفسها ثورة . أما أنا فقد بدأت آلف
الفلاحين . وجدت أكثرهم ذوى مزاج عصبي وحمية ، هم قوم حدم من

خيالهم ، جهلاء ، وأفقهم ضيق قائم . تشغل عقولهم أبداً فكرة واحدة هي الأرض السمراء . والأيام القائمة ، والخبز الأسود . هم قوم مردوا على الخبز . ولكنه خبت الطير الذي لا يعدو أن نحني رءوسها وراء الأشجار . إنهم لا قدرة لهم على التفكير . لم يكونوا يأتون الينامن أجل العشرين روبلا يكسبونها من التذرية ، وإنما من أجل نصف دلو من الفودكا . وإن كانوا يستطيعون أن يشتروا بالعشرين روبلا أربعة دلاء . حقاً ، لقد كانوا قذرين ، معربدين ، أذالا . ولكن ذلك لم يكن لينفي شعور المرء بأن حياة الفلاح جملة سليمة في جوهرها . ومهما بيد الفلاح غليظاً وحشياً وهو يتبع محراثه العتيق ، ومهما يستم نفسه بالفودكا ، فإن نظرة اليه عن قريب تشعر المرء بأن هناك شيئاً حياً مهماً فيه ، شيئاً ينقص مائناً والطبيب . أن الفلاح يعتقد مثلاً أن الحقيقة أهم شيء على الأرض . وأن الحقيقة منجاته ومنجاة كل إنسان . ولذلك فهو يحب العدل فوق كل شيء على الأرض . كنت أقول لزوجتي إنك تزين القذر على الزجاج . ولكنك لا تزين الزجاج نفسه . فتصمت أو تردد شأناً ستيفان . (أو لو . لو .) . وحين كانت وهي المثلة الطيبة الذكية تشحب غضباً ، وتخطب الطبيب بصوت مرتعش عن السكر والتذالة كان عماها يحيرني ويفزعني . كيف أمكن أن تنسى أن أباه المهندس كان يشرب ويشغل في الشراب ، وأنه جمع المال الذي اشترى به دوبيشنيا بالأعيب جريئة غير شريفة ؟ كيف أمكن أن تنسى ؟

وكانت أختي هي الأخرى تعيش منطوية على أفكارها الخاصة التي تخفيها عني . وكثيرا ما كانت تجلس تنهاس مع ماشا . فإذا قاربتها ازورت عني وبدأ في عينيها الأثم وامتلاتا بالضراعة . كان واضحا أن شيئا ما يحالج نفسها . شيئا يخفيها أو يخجلها . كانت تتعلق بمانا لتجتنب لقائي في الحديقة أو الاقتراد بي . فلم أكـد أجـد فرصة للحديث معها إلا وقت الغداء .

وذات مساء دخلت الحديقة في هدوء وأنا حائد من المدرسة . كانت الظلمة قد بدأت تخيم ، وكانت أختي . دون أن تلمحني أو تسمع وقع أقدامي ، تدور حول شجرة تفاح عتيقة كثيرة الفروع . في غير ما نائمة وكأنها سبيح . كانت في ثوب اسود نجىء وتروح . ونجىء وتروح . وعيناها إلى الأرض . وسقطت تفاحة من الشجرة . فارتاح للصوت ووففت وضغطت يديها على صدغيها ، فذهبت إليها ، وفي فيص من الحنان غمر قلبي فجأة اخذتها من كتفيها وقبعتها ، وقد امتلات عيناى بالدموع . وذكرت لأمر ما أمانا وطفولتنا . سألت :

- ما الأمر ؟ أنت تتعدين . وقد لاحظت ذلك منذ أمد بعيد .

خبريني ما الأمر ؟ فتمتست وهي ترتعد :

- انا خائفة سألت :

ما بالاك ؟ كوني صريحة بالله !

— سأكون . سأكون صريحة . سأخبرك بالحقيقة كلها ، إن إخفاء
نبيء عنك امر صعب مؤلم .
ومضت تقول في همس :
— ميشيل . إنني أحب . إنني أحب . إنني سعيدة ولكن لم أنا
خائفة ؟

وسمعت وقع حطي . ثم ظهر الطيب بلاجوهو بين الأشجار . كان
رتدى قميصاً حريراً . وحذاءين طويلين . وكان واضحاً أنهما قد اتعدا على
اللقاء عند شجرة التفاح . وحين رآته ألفت بنفسها في ذراعيه مبهورة ،
هي تصبح صبيحة معذبة كأنه يؤخذ منها .
— فلاديمير . فلاديمير .

والتصقت به وهي تحرق فيه باهمة . وفي تلك اللحظة لمحت ما أصابها
من نحول وشحوب . ولاحظت ذلك خاصة من ياقمها الشفافة . وكننت
أعرفها منذ سنين ، فقد أصبح الآر فضفاضة حول عنقها الناحل . أخذ
الطيب ولكنه نمالك نفسه لتوّه وقال وهو يمسح شعرها :
— كفى . كفى . فيمَ اتفعلاك هذا كله ؟ أنت ترين أني قد أتيت .
صمتنا وقتاً . به طر كل منا إلى الآخر في خجل ثم ذهبنا جميعاً وسمعت
الطيب يقول :

— إن الحياة المتعدنة لم تبدأ عندنا بعد . والشيوخ يتعززون بقولهم
إزاء إذا لم يكن هناك شيء منها الآن . فقد وجد في العقدين الخامس

والسابع ، وذلك عزاء يرضى الشيوخ . أما نحن فلا زلنا بعد شبانا لم
يتطرق إلى أذهاننا انحلال الشيخوخة ، ولا نستطيع أن نتعزى بمثل
هذه الخيالات . قد وجدت روسيا سنة ٨٦٢ ولكن روسيا المتحضرة
كما أفهمها لم توجد بعد .

لم أكن لأهتم بما يقول الطبيب ، فقد بدا لي الأمر ما أن وقوع
أختي في الحب ومشيتها إلى جانب رجل غريب تضع يدها على ذراعه ،
وتنظر إليه في حنان ، أمر غريب جداً لا يمكن تصديقه . كانت أختي وهي
الفتاة الفقيرة الفرعة ، الحية الشقية ، تحب رجلاً متزوجاً وله أولاد .
فاض بي الاشفاق لسبب لا أفهمه ، وكرهت محضر الطبيب ، وحرب
فيما يمكن أن ينجلي عنه هذا الحب .

- ١٥ -

ركبت أنا واماشا إلى كوريلوفكا لافتتاح المدرسة . قالت ماما وهي
تنظر حولها .

- الخريف . الخريف . الخريف .

وكان الصيف قد مضى . وولت الأطييار . ولم يعد مخضراً إلا
الصفصاف . اجل : مضى الصيف وكانت الأضاحي لا زال مشرفة
دافئة ، وإن ردت الأمسيات . وكان الرعاة قد بدأوا يلبسون فراءهم ،
والطل لا يحف طول اليوم على سجر الأصطرفى الحديقة . وكان المرء
يسمع أصواتاً حزينة يستحيل عليه أن يتبين أهى أصوات مصاريع

- ١١٢ -

نوافذ تصر على مفاصلها الصدئة . أم نعيق كراكي طائرة . ومع ذلك
فكم كان المرء يحس إحساساً قويا بالحبور والرغبة في الحياة !
قالت ماشا :

مضى الصيف . والآن نستطيع أن ننظر في حسابنا ، فقد تحملنا
مشقة العمل والتفكير ، ونحن الآن أقدر عليهما ، فلنهنأ أنفسنا بكل
ذلك . ولكن هل كان لنجاحنا أثر ظاهر في الحياة التي تحيط بنا؟ هل أفاد
إنساناً واحداً؟ كلا . فالجهل والقدارة والسكر وسبب الموتى العالية بين
الأطفال - كل شيء لا زال كما كان . ولم تتحسن حال شخص واحد ، بما
حرثت وبذرت أنت ، وما أنفقت أنا من مال ، وقرأت من كتب . من
الواضح أن الأمر لا يعدو أننا عملنا لأنفسنا . ووسعنا عقولنا .

كنت أرتبك لمثل هذه المناقشات ، ولا أدري فيم أفكر . فأت .

- لقد أخلصنا من البدء إلى النهاية . وإذا أخلص المرء فالحق معه .

- من ينكر ذلك ؟ لقد كنا على حق . ولكن طريقنا إلى هذا الحق
كان خطأ . خذ طرق معيشتنا نفسها أولاً . أليست خطأ ؟ فأنت تريد
أن تنفع الناس ، ولكن مجرد شرائك لعنيفة يجعل ذلك مستحيلاً . ثم
إليك حين تعمل وتلبس وتأكل مثل الفلاحين يكون ذلك منك تقريراً
وموافقة لهم على ملابسهم الخشنة . ومنازلهم الفظيعة . ولحاهم القدوة .
ومن جهة أخرى انعرض أنك عممت وقتاً طويلاً ، طويلاً جداً . حياتك

كلها . فحصلنا في النهاية على بضع نتائج عملية . فالى أى شىء يمكن أن
تؤدى نتائجك ؟

ماذا يمكن أن تفعل إزاء مثل هذه القوى الأولية العامة من الجهل
والجوع والبرد والانهلال . قطرة في محيط . إن الأمر يحتاج وسائل
أخرى للكفاح . وسائل ضرورية قوية . جريئة سريعة . إنك إذا
شئت ان تكون نافعاً وجب أن تترك دائرة النشاط العادى الضيقة ،
وتحاول أن تتصل مباشرة بالكتل الشعبية . وأنت محتاج قبل كل شىء
إلى دعاية قوية . صاخبة . لم كان الفن والموسيقى مثلاً . على ما نرى من القوة
والانتشار ؟ لأن الموسيقى أو المغنى يؤثر مباشرة في آلاف .

الفن - يا لروعة الفن ! - ونظارت إلى السماء ذاهلة وقال :

- إن الفن يمنحك أجنحة تحملك بعيداً . بعيداً . فإذا سئمت
القدر والمصاح الدنيا . وغضبت وحنقت وسحطت . وجدت الراحة
والرضا في الجمال وحده .

وحين اقتربنا من كوريلوفكا كان الجو لطيفاً صحوً بهيجاً . وكان
الفلاحون يدرسون في الأفنية فتدرف رائحة القمح والتبن . وكانت أشجار
الفاكهة وراء الأسرار قد أخذت في الاحمرار . وكان كل ما حولها أحمر
أو ذهبياً . وفي برج الكنيسة كانت الأجراس تزن . وكان التلاميذ يحملون
الأيافين في طريقهم إلى المدرسة . وهم يشدون ترنيمة .

(أيتها العذراء . أنت من يحميننا . كم كان الهواء صافيا ، وكم كانت الحمامات تعلو في السماء)

وأقيمت صلاة عامة في حجرة المدرسة . ثم أهدى الفلاحون إلى ماشا أيقونة ، وأعطاهم فلاحو دوشنيا رغيفا كبيرا ، وممحة مذهبة . بدأت ماشا تبكى . وقال فلاح شيخ وهو ينحني لها .

- نرجو العذرة إذا كنا قد خرجنا في القول أو تدمرنا .

وحين ركبنا عاتدين كان ماشا تنظر وراءها إلى المدرسة ، وكان السقف الأخضر الذي طأيته يلمع في ضوء الشمس . وقد لبثنا نراه فترة طويلة . كنس أحس أن نظرات ماشا كانت نظرات وداع .

- ١٦ -

هيات في المساء اتنهب إلى المدينة . وقد كثر ترددها في الأيام الأخيرة عابها . وميبتها هناك . وكنت في غيبتها لا أستطيع أن أعمل . بل أشعر بأن فابي يخذلني . ويبعدو فناؤنا الكبير كثيبا . بغيضاً موحشاً وتتجاوب في الحديقة أصوات تنذر بالسوء . ولا يعود البيت والأشجار واخيول في عيبي ماكما «لنا» .

ولم أكن أغادر البيت . بل كنت أقضي الوقت كله جالسا إلى مكتبتها . بين كتبها في الفلاحة والزراعة . تلك الكتب التي حرمت العطف . وه يعد مرغوبا فيها . كانت تطل على خجلة من خزائن الكتب وكنت أقضي الساعات الطويلة فتدق الساعة السابعة والثامنة والتاسعة . ويزحف

- ١١٥ -

ليل الخريف على النافذة ، أسود حالكا كالنثور ، وأنا أنامل قفازاً حقيقاً لها ، أو القلم الذى تكتب به ، أو مقصها الصغير . لم أكن أعمل شيئاً ، بل تبينت أن ما كنت أعمله من قبل من حرت وبذر وقطع للأشجار ، إنما كان تحقيقاً لرغبتها . ولو طلبت منى أن أنظف برأ ، وأقف والماء يغمرنى إلى خصرى ، لذهبت أنظفها ولا أحاول أن أرى هل البر فى حاجة إلى تنظيف . أما الآن وهى بعيدة فقد بدت لى دوبشنيا فوضى ، بقدارتها وأكوامها ونوافذها المصطكة ، والاصوص ، المتنمرين حولها ليل نهار ، لا يجدى العمل فيها أى جدوى . ولماذا أعمل الآن ، ولم أعنى نفسى بالمستقبل ، وأشغل به ، وأنا أحس بالأرض تسوخ تحت قدمى . وأن وجودى فى دوبشنيا كان عبثاً . وأنى كان ينتظرنى من المصير . ما لقيته كتب الفلاحة أوه كم ، تعذبت فى الليل ، فى الساعات الموحشة . حين كنت أرقد ، وأنصت فى قلق كأنى كنت أتوقع فى كل لحظة أن يصيح لى صائح أن وقت رحيلى قد حان . ولم أكن أسف على ترك دوبشنيا . بل كان أسقى على حبى الذى خيل لى أن خريفه قد بدأ . أى سعادة غامرة فى أن يكون المرء محباً محبوباً وأى شناعة فى أن يحس المرء ببدء تدهوره من ذلك البرج الشامخ !

عادت ماشا من المدينة مع مساء اليوم التالى ، وكان يزعجها أمر ما . ولكنها أخفته عنى ، وافتصرت على أن تقول لى :

- لم وضعت مصاريع الشتاء على النوافذ ؟ إن وجودها يجعل الجو

خائفاً ففتحت نافذتين ، ولم تكن لنا شهية للطعام ولكننا جلسنا
وتعشىنا . قالت :

— إذهب فاغسل يديك فرائحة الجلاء تفوح منك .

وكانت قد أتت معها من المدينة ببعض المجلات المصورة الجديدة
فأخذنا نقرأها بعد العشاء . وكان بها ملاحق من لوحات الأزياء ونماذجها .
فألقت ماشا عليها نظرة خاطفة وتركها لتعود فتتنظر فيها من بعدُ نظرة
فاحصة . على أن أحد الأثواب وكان جزؤه الأسفل واسعاً له شكل
الجرس . وروناه كبيران ، قد شاقها فتأملته لحظة في جد وانتباه وقالت :

— لا بأس بهذا . قلت :

— أجل إنه يلائمك كل الملاءمة . كل الملاءمة .

وأعجب بالنوب لا لشيء إلا لأنه راقا . وعدت أقول في حنان :
— هو ثوب فأن حبيب . يا حبيبتي ، وفانتى ماشا . يا عزيزتى ماشا .
وبدأت الهوم تقطر على لوحة الأزياء . همست :

— فانتنى ماشا . يا عزيزتى . يا حبيبتي ماشا .

ثم ذهبت ترقد . وبقيت ساعة ساكنة أنظر إلى الصور . صاحت
من المخدع :

— كان ينبغي ألا تفتح النوافذ . أخشى أن نصاب ببرد . أنظر
كيف تندفع الريح إلينا .

كنت أقرأ في المتفرقات عن تحضير المداد الرخيص ، وعن حجم

أكبر ماسة في العالم . ثم حانت منى التفاتة إلى الثوب الذي راق ماشا ،
وتخيلتها في حفلة راقصة تحمل مروحة . وكتفاها عاريتان . وقوامها
رائع باهر . غارقة في الموسيقى والرسم والأدب . كم بدا نصيبى في حياتها
ضئيلا تافها . كان لقاؤنا وزواجنا فترة منها كثر في حياة هذا الكائن
الموهوب المتلىء حيوية . كان خير ما في العالم طوع يمينها . لا تتكلف
له شيئا حتى الحركات الفكرية الشائعة كانت إحدى مسراتها ، تسرى
عنها في حياتها . لم أكن أنا الا الحوذى الذى يمضى بها من حماقة إلى
أخرى . وقد انتفتت اليوم حاجتها الى . فستذهب عني وقد كنى وحيدا
وهنا عات مر الفناء فخاة صيحة يائسة كأنها حوار أفكارى .

— النجدة ! النجدة !

وكانت الصيحة لامرأة . والصوت حادا . وقد أعولت الريح في
المدخنة عويلا كئيبا كأنها تقلد الصيحة تقليدا . ومضى نصف دقيقة ثم
عات الصرخة مرة أخرى على صوت الريح .

— النجدة ! النجدة !

قالت زوجتى هامة :

— أسمعت ذلك يا ميشيل ؟ أسمعت ؟

وخرجت من مخدعها في منامتها مرسله الشعر ، ووقفت تنصت
وتحدق من خلال النافذة المظلمة . نمتت :

— هناك شخص يقتل . لم يكن ينقصنا غير هذا .

أخفت به قيتي وخرجت . كان الفناء حالك الظلمة ، وقد اشتد هبوب الريح حتى ليتعذر الوقوف . ذهبت إلى البوابة وأنصت . كانت الأشجار تن . والريح تصفر خلالها . وكلب الأبله يذبح في الحديقة . أما وراء البوابة فكان الظلام كالقار . ولم يكن على الخط الحديدي جنود ما . ولكني سمعت فجأة غريبا من الجناح الذي كانت فيه المكاتب صيحة مخنوقة .

— النجدة ! النجدة ! .

ناديت :

— من هناك ؟

وإذا هما رجلان قد اشدأبكا في سراع . وكاد أحدهما يطوح بالآخر . لولا أنه يقاوه كل قورنه . وقد ثقات أنفاسهما جميعا . قائرا أحدهما :
— دعني .

فعرفت فيه إيفان شبرا أتوف . كان هو الذي صاح بصوت نحيل .
— دعني . يا خنزير وإلا عفاضت يديك .

وعرفت في الرجل الثاني موسى . ففصات بينهما ، وه أستضع أن أمنع نفسي من أن ألكم موسى في وجهه مرنين . فسقط به وقف فلجمته مرة أخرى . تتم :

— لقد حاول أن يقتلني . ضبطته يأسحب إلى درج مه . وحاولت أن أحبسه هنا لتأمن شره .

وكان شبرا كوف سكران فلم يعرفنى . وقد وقف يلقف ألقامه ،
كأنما يريد أن ينشق من الهواء ما يمكنه من الصياح مرة أخرى .
ثم تركتهما وعدت إلى المنزل ، فوجدت زوجتى مستلقية على فراشها ،
وقد ارتدت ملابسها كاملة . فأخبرتها بما حدث في الفناء ، ولم أخف عنها
أنى ضربت موسى . قالت :

— إن سكنى الريف فظيعة . كم يطول فيه الليل !

• وبعد قليل سمعنا من جديد .

— النجدة ! النجدة ! . قالت :

— سأذهب وافرق بينهما .

فقالت فى استمزاز .

— لا دعهما . يقتل احدهما الآخر .

رفتت تحديق فى السقف ، وتنصت ، وجاست قريبا منها : وانا
لا اجرو على الكلام . بل كنت احس ان انبعاث صيحات النجدة : من
الفناء ، وطول الليل : كانا من ذنبى . لبثنا صامتين . وأنا أنتظر ، نافذ الصبر ،
أن يبرز ضوء الفجر من وراء النافذة . وكانت ماشا تبدو وكأنها قد
صحت من نوم طويل . فعجبت أن ترى نفسها وهى الذكية المتعلمة الرقيقة
تدوى فى هذا الجحر الرقيق التمس بين قوم من الناس فيهم صغار وضخوة
وأن يبلغ بها نسيانها لنفسها أن تحب واحدا منهم . فتصبح زوجة لـ
كثير من ستة أشهر . وبدا لى أننا جميعا سواء عندها . أنا وموسى

وشبراكوف - أنا وزواجى وعملنا وطرق الخريف الموحلة - تبحرنا
 جميعا صيحة « النجدة » المخمورة الوحشية . وكنت أستطيع أن أقرأ فى
 عينها وهى تنهد وتعذل من جلستها أن : أوه . لبت النهار يجعل بقدومه .
 وفى الصباح رحلت . وبقيت فى دوشينا ثلاثة أيام أخرى أنتظرها
 ثم نقلت أشياءنا جميعا إلى غرفة واحدة وأغلقتها ، وذهبت الى المدينة .
 وحين قرعت الجرس فى بيت المهندس كان الوقت مساء ، والمصاييح
 مضادة فى شارع الأعيان الكبير . أخبرنى يافل أن لا أحد بالمنزل ، وأن
 فيكتور ايشانتش قد ذهب إلى بطرسبرج ، وأن ماريا فيكتوروفنا قد
 تكون فى تجربة بيت أشوجن . وأنا أذكر اضطرابي حين ذهبت إلى
 بيت أشوجن ، وكيف ثقلت دقات قاي وغاص فى حشاى . وأنا أصعد
 الدرج ؛ وكيف وقفت طويلا على العتبة لا أجروء على ولوج هيكل
 الرباب ذاك ؛ كانت الشموع موفدة فى القاعة ، وفوق النضد ، وعلى
 المسرح كل ثلاث معاً . جعل موعدا الحفلة الأولى اليوم الثالث عشر .
 والتجربة بالملابس يوم الاثنين - يوم النحاس - صراع ضد الخرافة ؛ وقد
 اجتمع محبو الفن المسرحى جميعا ، وأخذت فتيات أشوجن الكبرى
 والوسطى والصغرى يذرعن المسرح وهن يقرأن أدوارهن . وقد وقف
 راديش وحده فى ركن . ورأسه يعتمد الى الحائط وهو ينظر الى المسرح
 نظرة العابد ، وينتظر أن تبدأ التجربة . كان كل نساء على وضعه القديم
 لم يتغير .

وما إن أتجهت نحو ربة الأرواح بيدها حتى بأ كل من حولي
 يهسون لي ويرفعون أيديهم أن آكف عما أحدث من ضجة وأنا أمشي .
 وران السكون . ورفع غطاء البيان . وجاءت سيدة تخزير صفحة الموسيقى
 بعينين قصيرتي النظر . ووقفت ماشا الى جانب البيان . وقد ارتدت
 ثوبا جميلا . ولكن جماله كان من طراز جديد غريب ، لا يحكي قط ماشا
 التي كانت تأتي إلى في الطاحونة أيام الربيع . وبدأت تغني : « لم أحبك
 أيها الليل الهاديء ؟ »

كانت تلك هي المرة الأولى التي سمعتها فيها تغني منذ عرفتها . وكان لها
 صوت لطيف ، غني . قوي . وكنت أصغي إلى غنائها وكأنني آكل
 فاكهة ناضجة ذكية الرائحة . ثم ختمت الأغنية وصفق الحاضرون ،
 فابتسمت وبدأ عليها السرور . وأجالت عينيها ورنّت إلى صفحة الموسيقى .
 وعدلت من ثوبها كما يخلو طائر إلى جناحيه يسوي ريشهما بمنقاره إثر
 هروبه من القفص . وكان شعرها مسرحاً الى الوراء ، على أذنيها ، وعلى
 وجهها تعبير من التحدي الماكر ، كأنها تريد أن نتحدانا جميعاً . أو أن
 تصيح بنا وكأننا خيول أن « هيا أيتها الخيول العجاف » .

كانت في تلك اللحظة أشبه شيء بمجدها الحوذى . قالت وهي
 تمد لي يدها :

— أنت هنا أيضاً ، أسمعني أغني ؟ كيف ترى غنائي ؟

ثم قالت دون أن تنتظر جوابي .

١
- لقد جئت في وقتك . فأنا ذاهبة الليلة إلى بترسبرج لفترة قصيرة. أليس كذلك؟

وفي منتصف الليل ذهبت بها إلى المحطة . وقد عانقتني في حنان ، ولعلها بذلك كانت تشكر لي أنني لم أثقل عايتها بأسئلة لا تجدى ، ووعدت أن تكتب إلي . وأبقيت يديها في يدي وقتاً طويلاً ثم قبلتهما وأنا أجد في حبس دمي . ولا أفوه بكلمة .

وحين تحرك القطار وقفت أنظر إلى أضوائه المتباعدة ، وأنا أقبلها في خيالي وأهمس :

- يا عزيزتي ماشا . يا فاتنتي ماشا .

وقضيت الليلة في مكاريخا عند كارپوفنا . وفي الصباح عملت مع راديش في تنجيد أثاث تاجر غي كان قد زوج ابنته إلى طبيب .

- ١٧ -

في مساء يوم الأحد جاءت أختي تزورني ، وتناونت الشاي معي . قالت وهي تربي الكتب التي استعارتها من مكتبة المدينة في طريقها إلي :

- أنا أقرأ الآن كثيراً . والفضل في ذلك لزوجتك وثقلا ديمير ، فقد أيقظا شعوري بنفسي . وأنتذاني ، وأشعراني بأنني كائن بشري . كنت أسهر الليل قلقاً أفكر . كما أسرفنا في السكر هذا الأسبوع ! ، « كم أرجو ألا يكون ملح الخيار زائداً ! » ، وأنا اليوم لا أنام ولكن

أفكارى مختلفة تماماً . يعذبني اليوم انى قضيت نصف عمرى فى حياة من الغفلة والجبن . إني احتقر حياتى الماضية ، واخجل منها ، وانظر إلى أبى الآن كأنه عدوى . أوه . كم أنا شاكرة لزوجتك اوثقلا ديمير ! ذلك الرجل الرائع . فما قد فتح اعينى على أشياء كثيرة . قلت :
- يسوءنى ألا تنامى .

- أنظنى مريضة ؟ البتة . وقد فحصى فلاديمير وقال إني موفورة الصحة . ولكن ليس الأمر تمام الصحة ، فهذا لا يهم . قل لى هل أنا على حق ؟

كان واضحاً انها بحاجة إلى سند نفسى ، فقد ذهبت ماشا ، وكان الطبيب بالاجوفو فى بطرسبرج ، ولم يعد فى المدينة أحد سواى يستطيع أن يقول لها إنها على حق . اثبتت عينها فى . تحاول ان تقرأ أفكارى الدفينة . وكنت إذا شرد ذهنى فى هذه الأفكار رغم وجودها وبقيت صامتة وحزنت ، كان على ان الزم الحيلة ، فاذا سألت أهى محقة سارعت فأكدت لها أنها كذلك ، وأنى أنطوى لها على احترام كبير . عادت تقول :

- اتعلم انهم اعطونى دوراً فى بيت اشوجين . فأنا أريد أن أمثل ، أريد أن أحيأ ، وان انغمس فى الحياة . انا عارية عن كل موهبة ودورى لا يعدو عشرة اسطر ولكن ذلك اللطف بكثير وانبل من صب الشأى خمس مرات فى اليوم ، ومراقبة الطاهية حتى لا تأكل ما يتبقى من السكر

وأهم من ذلك كله انى أريد أن يرى أبى انى أيضاً أستطع ان اتود على طفياته .

بعد الشاى رقدت على فراشى زمنا ، وعيناها مغاقتان ، ووجهها شديد الشحوب . قالت وهى تنهض :

— ذلك ضعف لا أ كثر . وقد قال فلاديمير إن فتيات المدينة ونساءها جميعا يشكون فقر الدم لأنهن لا يعملن . يالفلاديمير من رجل ماهر ! إن الحق فى جانبه دائماً ، فنحن فى حاجة الى العمل حقا .

وبعد يومين جاءت للتجربة فى بيت أشوجين وفى يدها دورها . كانت ترتدى ثوباً أسود وعليها قلادة من عقيق ، ودبوس يبدو من بعيد كأنه فطيرة ، وقرطان كبيران تتلأأ فى كل منهما جوهرة ، اضطربت حين رأيتها ، وراعى فساد ذوقها . وقد لاحظ الآخرون أيضاً أن ملابسها لم تكن مناسبة ، وأن أقراطها وجواهرها كانت نائية . رأيت ابتساماتهم وسمعت بعضهم يقول ساخرأ .

— كلوباترا ملكة مصر !

لقد حاولت أن تكون سيدة مجتمع ، وأن تبدو متبسطة مالكة لنفسها . فبدأ عايتها التكلف والشدوذ . وفقدت بساطتها وسحرها . أخذت تقول وهى قادمة إلى :

— لقد أخبرت أبى أنى ذاهبة إلى تجربة . فصاح وكدينزل بى امته . وأوشك ان يضربنى . واضغف وهى تلقى على دورها نظرة :

تصور . أنا لا أعرف دورى . وسأخطيء دون شك . ثم قالت مضطربة لا بأس ، فقد قضى الأمر . قضى الأمر .

كانت تشعر أن الجميع ينظرون إليها ، وأنهم يعجبون للخطوة الهامة التي أقدمت عليها ، وأنهم يتوقعون أن يصدر عنها شيء رائع . وكان من المحال إقناعها بأن أحداً لا يعير التفاتة إلى أمثالي وأمثالها من صغار الناس . لم يكن لها عمل ما إلى الفصل الثالث . وكان دورها ، وهو عن ضيفة

تسترق السمع ريفية ثرثارة ؛ لا يعدو أن تقف إلى جوار الباب كأنها تسمع حديثاً ما ، ثم تخاطب نفسها خطاباً قصيراً . لزمتني ساعة ونصف ساعة على الأقل قبل أن يبدأ دورها ، فلم تغادرني في حين كان الآخرون يتمشون ويقراءون ويتناقشون ويشربون الشاي ، بل لبثت الوقت كله تتم بدورها ، وتقبض الورقة في يدها . وتخال أنهم ينظرون إليها وينتظرون ظهورها على المسرح . ربنت على شعرها بيد مرتعشة وقالت : - سأخطيء دون شك . انت لا تعرف كم أنا مضطربة . أنا فزعة كما لو كنت اساق إلى المقصلة .

وأخيراً جاء دورها فقال المخرج :

- كلوباترا اليكسيفنا . دورك

فشت إلى وسط المسرح وعلى وجهها تعبير من الفزع ، وكانت تبدو قبيحة جامدة . وقمت هناك نصف دقيقة وهي لا تنبس . ولا تبدو
هنا بعد كلمة . عبر راحة يدي عن الكبرين على صفحة وجهها . قال قائلاً :

— نستطيعين في هذه المرة أن نقرأى دورك .

كان واضحاً أنها ترتعد ، ولا تستطيع أن تقرأ أو تفتح كتابها لصغير ، وأنها قد نسيت الكلمات نسياناً تاماً . وما إن عزمت على أن تذهب إليها وأكلها حتى وقعت على ركبتيها في وسط المسرح وهي تنتحب .

عم المكان اضطراب وصياح . ووقفت جامداً في مكاني وراء المسرح وقد صعقتني ما حدث . لا أفهم شيئاً ، ولا أدري ما أفعل . وقد رأيتهم يحملونها ويقودونها بعيداً . ورأيت أنيوتا بلا جوفو تأتي إلى ، ولم أكن قد رأيتها في القاعة ، بل خيل إلى أنها انبعثت من الأرض . كانت ترتدى قبعة ونصيفا . وبدأت كهاتها وكأنها مرت بالمكان اتقضى فيه لحظة وتمضى . قالت غاضبة وهي تلفظ الكلمات واحدة واحدة وقد احمر خداهما :
— لقد قلت لها إنه لا ينبغي أن تمثل . هذا جنون . كان عليك أن تمنعها .

وجاءت السيدة أشوجين إلى مسرعة في سرة قصيرة ذات أكام قصار ، وكان على صدرها التحيل الأمسح آثار من رماذ الطبايق . قالت وهي تضرب يداً بيد . ومحدق كهاتها في وجهي :
— هذا فظيع . . إن أختك في حالة . . إنها حامل . اذهب بها حالا . . أرجوك

كانا احضرهما نتمل نفاد . . وكانت تفهم وراءها بناتها الثلاث

وكلهن نحيفات سمرات ، مثلها وقد بدا عليهن الرعب ، وتلاصقن ، كن
فرعات فلفات كأنما قبض في يديتهن على مجرم ، أي عار ! فظاعة ! هذه
هى الأسرة التى قضت حياتها تحارب الأوهام البشرية والخرافات . يظهر
أن خرافات البشر وأخطاءهم جميعاً كانت تنحصر عندهن فى إشعال
ثلاث شموع معاً ، أو فى الثلاثة عشر ، أو فى اليوم المنحوس - يوم الاثنين .
أخذت السيدة اشوجين تقول :

- أرجوك .. أرجوك . ثم قالت وهى تضغط على شفيتها لتؤكد

الرجاء :

- يجب أن أرجوك فى أن تذهب بها إلى البيت .

- ١٨ -

بعد قليل كنت أمشى أنا وأختى فى الطريق . وقد غطيتها بمعطفى .
كنا نسرع فى الشوارع الجانبية الخالية من المصاييح . وتجنب المارة .
كنا أشبه بهارين . لم تعد تبكى ، بل كانت تضحك فى بعينين جفت
فيهما الدموع . وكنا نبعد فدر عشرين دقيقة عن ما كارينها إلى حيث
كنت ذاهباً بها . وفى تلك الفترة القصيرة . رجعنا إلى الورا فررنا
بحياتنا كلها ، وكنا نتحدث عن كل شيء . وتأمل موقفنا ونفكر ..

رأينا أننا لا نستطيع أن نقيم فى المدينة . بل ينبغى أن نذهب إلى
مكان آخر حين أحصل على شيء من المال . كان الناس فى بعض المنازل قد
ناموا . وكانوا فى بعضها الآخر يلعبون الورق . وكنا نغض تلك المنازل

ونخافها : وتحدث عن هوس تلك الأسر المحترمة ، وفراغها ، وموت إحساسها ، وعن عشاق الفن المسرحي أولئك الذين ملأناهم بالفزع . كنت أعجب كيف يمكن أن يكون هؤلاء الأغبياء القساة والبلداء الآن ذال خيراً من فلاحى كوريلوفكا السكيرين الذين يعتقدون بالخرافات ، أو كيف يمكن أن يكونوا خيراً من الحيوانات التى تفقد وعيها حين تطرأ حادثة ما على حياتها الرتيبة التى تحددها الفرائز . ماذا يمكن أن يقع لاختى لو أنها بقيت فى المنزل ؟ أى عذاب نفسى يكتب عليها أن تتحمله وهى تحادث أبى أو تلقى معارفنا كل يوم ؟ تصورت ذلك كله ، فأخذت تتوارد على ذهنى صور أناس كنت أعرفهم معرفة وثيقة ، تحلى عنهم أصدقاءهم وأقرباؤهم شيئاً فشيئاً . وذكرت الكلاب المشردة التى أصابها الجنون . والرازير ينتف ريشها الصبيان القساة وهى حية تم يلقونها فى الماء - إلى صور من التعذيب البطيء الوحشى لا تنتهى . اعتدت أن أسهدها فى المدينة منذ الطفولة . ولم أستطع أن أفهم الغاية من حياة خمسة وثلاثين ألفاً من السكان . لم كانوا يقرءون إلا إنجيل . لم كانوا يعملون ؟ لم كانوا يمرّون بأعينهم على الكتب والمجلات ؟ ما قيمة كل ما كتب وقرئ إذا بقي الناس فى مثل ما كانوا فيه من الضلام الروحى . ومن بغض الحرية . وكأنهم يعيشون منذ مئات ومئات السنين ؟ إن البناء منهم ايقضى عمره بين المنازل ثم يمضى إلى قبره وهو لا يزال يقول « الشفرة » بدل « الشرفة » . وقد قرأ خمسة والثلاثون ألفاً من السكان وسمعوا عن الحقيقة والرحمة واخرية

أجيالا ، ولكنهم لا يزالون حتى آخرتهم المرة يكذبون من الصباح إلى المساء ، ويعذب الواحد منهم الآخر ، ويخشون الحرية ويكرهونها كأنها أعدى أعدائهم . قالت أختي حين أدركنا البيت :

- وكذلك قضى في أمرى فأنا لا أستطيع ان اعود إلى هناك بعد الذى حدث . يا إلهى كم يطيب لى ذلك القدر اذ يبع عن كاهلى عبء ثقیل . ورفدت لنوها ، ولعلت الدموع فى أهدابها ، وإن بدت سعيدة . ونامت نوما عميقا رخيا . كان جليا أنها تحس بالأمن والراحة وأنها لم تنم مثل هذا النوم منذ وقت طويل

وكذلك بدأنا نعيش معاً . كانت تغنى دائماً وتقول إنها بخير حال . وقد أعدت الكتب التى استعرتها من المكتبة دون أن تقرأ لأها قالت إنها انصرفت عن القراءة . لم تكن تريد إلا أن تحلم وتتحدث عن المستقبل . كانت تدندن وهى ترفع ملابسى ، أو تساعد كاروبونا فى الطهى أو تتحدث عن فلاديمير . عن عقله وطيبته ، ومسلكه اللطيف ، وعلمه الممتاز . وكنت أوافقها وإن لم أعد أحب الطبيب . كانت تريد أن تعمل ، وأن تغدو مستقلة . وأن تعيش بمفردها . وقالت إنها نود أن تصبح معلمة أو ممرضة حين تسمح صحتها بذلك . وإيها تريد أن تمشح الأرض بنفسها وأن تغسل ملابسها بيدها . وكانت تحب جنيانها حباً حمياً . بل إنها تعلم لون عينيها . وشكل وجهه . وطريقته فى الضحك . وكانت تحب أن تتحدث

كانت تنحصر في أن تجعل الطفل ساحراً مثل أبيه . لم تكن لثروتها
هياة ، وكان كل ما نتحدث عنه يملؤها مرحاً . وكنت أنا أحياناً أفرح
بأن لم أكن أعلم لذلك سبباً .

ولست أشك في أنها قد أعدتني بأحلامها ، فقد غدوت أنا أيضاً
لا أقرأ شيئاً ، بل أقتصر على الأحلام . وقد اعتدت كل مساء على ما بي
من تعب ، أن أذرع الغرفة روحه وجيئة ويداي في جيوبى . وأنا أتحدث
عن ماشا . كنت أسأل عن أختى :

— متى تظنيتها تعود ؟ أظنها عائدة مع عيد الميلاد ، على الأكثر .
فأى عمل لها يبقيا هناك ؟

— ما دامت لا تكتب إليك . فذلك يعنى أنها قريبة العودة .
— حقاً .

كنت أوافقها ، وإن أيقنت أنه لم يكن في مدينتنا ما يدعو ماشا
إلى العودة .

كنت شديد الافتقاد لماشا . ولكن لم يكن يسعنى إلا أن أخدع
نفسى . وأرغب في أن يخدعنى غيرى . كانت أختى مشوقة إلى طيبها ،
وكنت أحن إلى ماشا . ولكننا كلينا كنا نضحك وتحدث ولا نرى
قط أننا نحرم كاربوننا من النوم . فكانت ترقد على افرن تغفم

— إن السماور كان ينشر هذا الصباح . ناشر - ش .. ولا يحمل ذلك

هذه الأحد . ٧ دفوفو ، الأس :

لم يكن يأتي إلى البيت أحد غير ساعي البريد، الذي كان يجلب لـأختي
خطابات من الطيب، وغير بروكوفي الذي اعتاد أن يأتي في المساء أحياناً
ويسارق أختي النظر ثم يذهب إلى المطبخ ويقول :
- لكل طبقة طرقها الخاصة ، وإذا تكبرت عن فهم ذلك فلن تلقى
خيراً في وادي الدموع هذا .

كان يحب عبارة « وادي الدموع » . وقريباً من عيد الميلاد كنت
أجتاز السوق فدعاني إلى دكانه . وقال دون أن يمد لي يده بالسلام ، إن لديه
أمراً هاماً يريد مباحثتي فيه . وكان محمر الوجه من أثر الفودكا والصقيع ،
وإلى جواره وقف نيكولكا الذي تبدو على وجهه سيماء القتل ، وهو
يحمل في يده سكيناً دامية . بدأ بروكوفي يقول :

- أريد أن أصارحك القول . فهذه الحالة كما تعلم لا يمكن أن
تستمر . ففي وادي الدموع هذا لن يظفر أحد منا أو منكم بثناء . وقد
حالت الرحمة بين أي وبين أن تحدثك بما لا يسرك . وتطلب إليك أن
تبحث لك ولاختك عن منزل آخر . للحالة التي عاينها أختك ولكني
لا أريد بقاءكما . لأنني لا أقر تصرفها .

فهمت ما يريد ، وغادرت الدكان . وفي ذلك المساء انتقلت أنا وأختي
إلى بيت راديش . ولم يكن معنا أجر العربة فشيننا . وكنت أحمل صرة
أشياءنا على ظهري . وكانت أختي لا تحمل شيئاً ، بل تسبر وهي تلتهم
وتسعل وتسألني هل بطول بنا السير ؟

في النهاية جاء خطاب من ماشا . كتبت :

يا عزيزي الحبيب م . ا . يا فتى الشجاع ، يا ملاكي الرفيق كما يدعوك
النقاش الهرم - الوداع . انا ذاهبة إلى امريكا مع ابى نشهد العرض .
وبعد ايام قليلة سأركب المحيط - بعيداً جداً عن دوبشنيا . كم يهولني
ان افكر في هذا ! فالمحيط واسع طلق كالسما . وانا احن اليه لأنه يمنحني
الطريق الى الحرية . انا امرح وارقص وانت ترى ما في خطابي من
اضطراب . يا عزيزي ميشيل امنحني حريتي . واسرع بقطع المحيط الذي
لا يزال يربط بيننا . لقد كان لقائي لك ومعرفتي بك شعاعاً من السماء
اضاء وجودي . ولكنك تعلم اني اخطأت حين اصبحت زوجة لك .
ومعرفتي بالخطأ تنقلني ، فأنا أتوسل اليك را كعة . يا عزيزي ، يا صديق
الكريم ، ان تسرع . ان تسرع قبل ان ادرك البحر فتبرق الى انك
تقرني على اصلاح ما وقعنا فيه من خطأ . وترفع عن جناحي ذلك المبه
الوحيد . وسيتولى أبى الأمر كله ، وقد وعدني انه لن يثقلك بالامور
الرسمية . هل انا حرة إذن اذهب في الدنيا حيث اشاء ؟ اجل ؟ لتسعد
وليرعك الله ، اغفر لي اساءتي .

انا بخير ، انفق المال دون حساب في صنوف الحماقات جميعاً ، وأحمد
الله ابدأ على ان امرأة طائشة مثلي لم تنجب اطفالاً . انا اغنى ، وانا
نجاحاً في الغناء ولكن ذلك لا يشبع عاطفتي . فالغناء هو ملاذي وقد

لجأت اليه اليوم لاستريح . لقد كان للملك داود خاتم نقش عليه « كل شيء يمضي » وهذه الكلمات تدخل السرور على قلب الحزين ، وتدخل الحزن على قاب السرور . وعندى الآن خاتم عليه هذه الكلمات بالعبرية ، وستحفظ هذه التعويذة على قلبي وعقلي . أو لعل الانسان لا يحتاج إلا إلى الشعور بالحرية . لأن الانسان الحر لا يحتاج إلى شيء ما . إلى أى شيء . اقطع الخيط إذن . اعانقك واعانق اختك في حرارة . اغفر لى . وانس . حبيبتيك م . »

كانت لأختي غرفة خاصة بها ، وكان راديش الذى تقه بعد مرضه يقيم في الغرفة الأخرى . وكانت أختي حين تأقيت ، هذا الخطاب قد ذهبت الى غرفة النقاش وجلست الى صيوان تقرأ له . وكانت تقرأ له اوستروفسكى أو جوجول كل يوم . وقد اعتاد ان يصغى وهو يحدق بعينه أمامه : لا يضحك قط . بل يهز رأسه . ويهمس بين حين وآخر لنفسه ، كل شيء قد يحدث . كل شيء قد يحدث .

وإذا مر فيما تقرأ شيء قبيح قال محتدأ وهو يشير إلى الكتاب :
- هذا هو . أكاذيب . هذا ما تفعله الأكاذيب .

وكانت القصص تشوقه بمحادثتها كما كانت تشوقه بفكرتها الخلقية . وعقدتها المحبوك . وقد اعتاد أن يظهر إعجابه بضمير الغائب دون ان يصرح باسم ما . فيقول .

- يا لمهارته في تنسيق ذلك كله .

كانت أختي قد قرأت صفحة من الكتاب بسرعة ثم صمتت وقد خافها صوتها . فأمسك راديش بيدها وقال وقد تحركت تنفاهه الجافة في صوت اجش لا يكاد يسمع .

- إن روح الطاهر بيضاء ناعمة كالطباشير . أما روح الخاطئ . فهي من حجر الخفان . إن روح الطاهر زيت صاف أما روح الخاطئ فقطران . ثم قال : يجب أن نعمل و نحزن ونرحم ، وإذا عاش إنسان دون أن يعمل أو يحزن لم يدخل مملكة السماء . الويل الويل للمتخمين . الويل للأقوياء الويل للأغنياء الويل للمريين . إنهم لن يروا مملكة السماء . إن الصراصير تأكل الحشيش . والصدأ يأكل الحديد . .
فأتمت أختي ضاحكة :

- والأكاذيب تنخر الروح -

قرأت الخطاب مرة أخرى . وفي تلك اللحظة جاء الجندي الذي كان يأتي إلينا مرتين في الأسبوع دون أن يخبرنا عن يرسله . ويجلب الشاي والخبز الفرنسي ولحم الطيور تفوح منها رائحة طيبة . ولم أكن أعمل . فكنت أقضي الأيام جالساً في البيت . وربما علم من كان يرسل إلينا الخبز أننا كنا في حاجة .

سمعت أختي تحدث الجندي وتضحك في مرج . ثم رقدت وأكلت شيئاً من الخبز وقالت لي :

- حين أردت أن تترك المكتب ، وتصبح نقاشاً . كنت أنا

وأنيوتا بلاجوفو نعلم منذ البدايه أنك على حق ، ولكننا خشينا أن نقول ذلك . قل لي ، أي قوة تلك التي تمنعنا عن التصريح بما نحس به ؟ هذه أنيوتا بلاجوفو فهي تحبك ، تعبدك ، وتعلم أنك على حق . وهي تحبني أيضاً كالشقيقة ، وتعلم أنني على حق . وهي في نفسها تحسدني ، ولكن قوة ما تمنعها من أن تأتي لزيارتنا . إنها تتجنبنا . إنها تخاف .

وعقدت أختي يديها على صدرها وقالت وقد استخفها الفرح :

- ليتك تعلم قدر حبها لك ! لقد اعترفت لي بذلك ، ولم تصرح به لغيري . حدثني به في تردد وفي الطلام . كانت تأخذني إلى الحديقة ، في الظلام ، وتحدثني هامسة بمكانك من قلبها . وسرتي أنها لن تزوج أبداً لأنها تحبك . أنت آسف لها ؟
- أجل .

- إنها هي التي أرسلت إلينا الخبز . وهي غريبة حقاً ، فلم تخفي نفسها ؟ لقد كنت أنا أيضاً غريبة مضحكة ولكني شعرت بذلك كله ، فلم أعد أخشى أحداً ، وأصبحت أفكر كما اشاء واعلن ما اشاء ، وأنا بذلك سعيدة . حين كنت اقيم في منزلنا لم اكن ادرك معنى السعادة اما الآن فأنا ارفض ان اتبادل مكاني مع ملكة .

أني الطيب بلاجوفو ، وقد حصل الآن على إجازته واصبح يعيش في المدينة في بيت ابيه يطلب الراحة . وقد قال إنه سيعود بعدها إلى بطرسبرج لأنه يريد ان يكرس نفسه للتطعيم ضد التيفوس ، والكوليرا

فيما اظن . كان يريد ان يذهب إلى الخارج يستزيد من المعرفة ثم يغدو من بعد استاذاً في الجامعة . وقد ترك الجيش وأخذ بلبس الآن ستر صوفية صافية ، وسراويل فضفاضة ، وأربطة عنق جميلة . وكانت أختي مدلهة بدبايس أربطته . وأزارار قيصه . ومنديله الحريري الأحمر الذي كان يضعه معجباً بنفسه في جيب الصدر من سترته . وحدث مرة حين لم يكن عندنا مايشغلنا أن أخذنا أنا وأختي نعد ما عنده من حال فاتفهينا إلى أنها لا تقل عن عشر ، وكان من الجلي انه لا يزال يحب أختي ، ولكن لم يحدث مرة ولو على سبيل الهزل انه تحدث باصطحاها إلى بطرسبرج أو إلى الخارج . ولم أكن أستطيع ان اقدر ما قد يحدث لها إذا سلمت بعد محنة الوضع ، وما يمكن ان يقدر لو ليدها ، ولكنها كانت سعيدة بأحلامها لا تميل إلى التفكير الجدى في المستقبل . كانت تقول إن بلاجوفو يستطيع أن يذهب حيث يشاء . بل يستطيع ان ينيذها إذا كان في ذلك ما يسعده ، اما هي فيكفيها ما نالت من سعادة .

كان من عادته حين يزورنا أن يفحصها فحصاً جيداً . ويطلب اليها أن تشرب أمامه شيئاً من اللبن قطرت فيه بضع فطرات من الدواء . وقد فعل ذلك في هذه المرة أيضاً ففحصها وجعلها تشرب كونا من اللبن . فشاعت في الغرفة رائحة الكريوزوت . قال وهو يأخذ منها الكوب :
- أنت فتاة طيبة . يجب ألا تتكلمي كثيراً ، فقد قضيت الأيام الأخيرة لا تكفين عن الثرثرة كالعق . أرجو أن تهدي .

بدأت تضحك . ثم دخل غرمة رادش حيث كنت أجالس ، ووربت
على كتفي في حنان وسأل وهو ينحني على العايل .

- حسناً أيها الشيخ . كيف ، أنت ؟

فقال رادش وهو يحرك شففيه مهدوء

- سيدى . دعنى أفل ... اتنا جميعاً نعت رحمة الله ... لا بد أن

يدركنا الموت ... دعنى أحدثك بالحقيقة ياسيدى ... انك ان بدخل
أبدأ مملكة السماء .

وهنا فقدت شعورى نفسى ، واستوى على الحلم . كان الفصل شتاء ،
والوقت ليلاً . وكنت واقفاً في فناء المسالخ ، وروكوفى إلى حائى تفوح
منه رائحة الكونياك . تم تماكنت نفسى وفركت عيني . ثم مرت
بخطرى صورة زيارتى للمحافظ .

لم يحدث لى ما يشبه ذلك من قبل . وقد ارجعت هذه الأحلام
الغريبة التى تشبه الذكريات الى الإرهاق العصبي . عشت مرة أخرى في
زياراتي للمسوخ والمحافظ ، وكنت ادرك فى الوقت عينه ان هذه الأشياء
لم تكن حقيقة واقعة .

حين أفقت من غيبتى . أدركت أنى لم اعد فى البيت ، بل كنت
واقفاً فى الشارع مع الطبيب الى جانب أحد العصاييح .

كان يبول والدموع تجري على خديه :

- هذا محزن . محزن . انها سعيدة دائمة الضحك مليئة بالأمل ،

ولكن حالتها تدعو الى اليأس . إن الشيخ راديش بكرهني ولا يزال يحاول أن يفهمني أنني أسأت اليها . وهو محق من جانبه . ولكن لي وجهة نظري أيضا ، وأنا غير نادم على شيء مما حدث . فالحب شيء ضروري ونحن جميعا يجب أن نحب هـذا حق . ألا ترى ذلك ؟ لا حياة بغير الحب ، وليس حرا ذلك الرجل الذي يتجنب الحب ويحشاه .

ثم انتقلنا إلى موضوعات أخرى . فبدأ يتحدث عن العلم . وعن رسالته التي قوبلت في بطرسبرج بمقابلة حسنة . كان يتكلم في حرارة ولم يعد يفكر في أختي أو في حزنه أو في . كانت الحياة تمضي به بعيداً . قلت لنفسي : تلك ماشا لديها أمريكا ومعها خاتم عليه نقش ، وهذا له درجته الطبية وحياته العلمية أما أنا وأختي فقد تركنا مع الماضي .

ولما افترقنا وقف تحت المصباح أقرأ خطابي مرة أخرى . ذكرت جيداً كيف جاءت إلى في الطاحونة في ذلك الصباح الربيعي ثم رقدت وغطت نفسها بستره القراء تخيل لي أنها امرأة فلاحه . وذكرت كيف سجننا في سرة أخرى وفي الصباح الباكر كذلك . الشبكة من الماء ، وكيف كانت أشجار الصفصاف على الشاطئ تنفض علينا قطرات كبيرة من الماء فنضحك .

كان كل شيء مظلماً في دارنا بشارع الأعيان الكبير . فتسلقت السور ، كما اعتدت أن أفعل في سالف الأيام ، ودخلت المطبخ من الباب الخلفي لأخذ مصباحاً صغيراً . لم يكن في المطبخ أحد . وكان السماور يهزج

على الموقد، معداً لأبى . قلت لنفسى : ترى من يصب الشاي لأبى الآن؟
أخذت المصباح وذهبت إلى البنية وصنعت من الجرائد القديمة فراشا
ورقنت . وكانت المسامير الكبيرة فى الحائط تبدو مخيفة كماداتها وقد
ترافقت ظلالها . وكان المكان باردا . ظننتنى أرى أختى مقبلة بالعشاء ،
ولكنى ذكرت لتوى أنها مريضة فى بيت راديش ، وبدأ لى غربيا أتنى
تسلقت الجدار ورقنت فى البنية الباردة . كان عقلى فى ضباب تملؤه
خيالات غريبة .

دق جرس بأصوات ألفتها منذ الطفولة ، صوت السلك يتحرك أول
الامر بالحائط ، ثم رنة قصيرة حزينة تسمع فى المطبخ . كان ذلك أبى
وقد عاد من النادى . قمت وذهبت إلى المطبخ ، فصفقت أكسينيا
الطاهية يديها حين رأتنى وبدأت تبكى . قالت هامسة :

— أوه يا عزيزى ! أوه يا عزيزى ! يا إلهى !

وبدأت فى اضطرابها تقبض أصابعها على التزر . وكانت على إفريز
الشباك زجاجة من القودكا . فلأت كوبا وجرعته وكنت شديد الظمأ .
وكانت أكسينيا قد انتهت من مسح المائدة والكراسى وكان المطبخ
الريح الطيبة التى تكون للمطابخ دائما إذا كان الطاهى نظيفا مرتبا .
وكانت هذه الرائحة وصوت صرّار الليل فى الحائط كثيرا ما تجذبنا إلى
المطبخ ونحن أطفال ، فنستمع إلى القصص ونلعب ممثلين الملوك ..
أسرعت أكسينيا بالسؤال لاهته :

— وأين كليوباترا؟ وأين قبعتك ياسيدى؟ إنهم يقولون إن زوجتك قد ذهبت إلى بطرسبرج .

كانت أكسينيا تقيم عندنا فى حياة أُمى، وكانت تحمىنى أنا وكليوباترا فى طست، وكنا لا نزال عندها أطفالا ومن واجبها أن تقومنا . وفى دقائق قليلة كشفت لى عن أفكارها جميعا، تلك التى اخترتها فى مطبخها الهادىء طوال غيبتى . قالت إنه يجب أن يقرض على الطبيب الزواج من كليوباترا . يتم ذلك بأن نحيفة قليلا ، فيرسل إلى الأسقف التماسا مجودا فيلغى الأسقف زواجه الأول . وينبغى أن أبيع دوبشنيا دون أن أخبر زوجتى بذلك . ثم أضع النقود فى المصرف باسمى . وقالت انه إذا ذهبت أنا وأختى نضرع إلى أبننا ونسأله فى رفق أن يصفح عنا ، فقد يصفح . ولنصل للعذراء وتتوسل علما أن نشفع لنا . قالت وقد صمنا سعة أبى :

— والآن ياسيدى ، اذهب وتكلم معه . اذهب . تكلم معه ، واسأله المغفرة ، إنه لن يقطع رأسك .

فدخلت ، وكان أبى جالسا الى مكتبه يعمل فى تصميم جوسق ذى نوافذ غوطية . وبرج قصير غليظ . مثل مرقب محطة الحريق — ربه جامد خال من كل فن . ولم أكن أدرك لم قدمت على أبى . ولكنى أذكر أنى رأيت وجهه النحيل ، وعنقه الأحمر . وظله على الجدار أردت أن أعاقه وأن أطلب صفحه متذللا كما أشارت على أكسينيا

ولكن معنى من ذلك مرأى الجوسق بنوافذه الفوطية ورجه القصير
الغليظ . قلت :

— مساء الخير .

فلم يكده يلمحني حتى عاد ينظر في رسمه . ثم سأل بعد قليل :
— ماذا تريد ؟ .

قلت بغياہ :

— جئت أخبرك أن أختي مريضة جداً . إنها تموت .

فتنهأ أبى ، وزرع منظاره عن عينيه ووضعته على المنضدة وقال :

— وإن ؟ كما بنرت فاتحصد . أريدك أن تذكر كيف أتيت إلى

منذ عامين ، فطلبت اليك في هذا المكان نفسه أن تتخلي عن معتقداتك

لفاسدة . وذكرك بشرفك وواجبك والزاماتك نحو أجدادك الذين

ينبغي أن تقدر نقاليدهم . فهل أصغيت إلى ؟ لقد نبذت نصائحى وتشبنت

بأفكارك الخبيثة . ثم إذاك غررت بأحتك الى طريقك البغيض . فجلبت

لما السقوط والعار . أتما الآن لشقيان بذنبكما . وكما بدرتما فلتحصدا .

كان يذهب وبجىء الى الغرفة وهو يتكلم . ولعله كان يظن أنى انما

جئت لأقر له بالخطأ ، ولعله كان ينتظر منى أن أطلب منه العون لى ولاختى .

كان المكان باردا وأنا أرجف كالحموم . وأتسكلم فى صوت أجش وفى

سعوبة . قلت :

— ثم أنى يجب أن أذكرك أنى فى هذا الموضع بمينه قد رجوتك

أن تفهمنى ، وأن تتأمل وتفكر فى غايتنا من الحياة وفى هدفنا ، فكان جوابك ، أن تتكلم عن أجدادنا وعن جدى الأكبر الذى كان ينظم شعراً .
والآن تعلم أن ابنتك الوحيدة مشرفة على الموت ولكنك تتحدث أيضاً عن الأجداد والتقاليد . رستطيع أن تحتفظ بهذا الترق والموت قريب منك . وحياتك لن تطول أكثر من خمس سنوات أو عشر .

سأل أبى فى حزم وقد أثاره أن أصمه بالترق

— لم أتيت الى هنا ؟

— لا اعلم . ولكنى احبك ولا استطيع ان اعبر عن اسقى لافراقنا .
ولذلك قد جئت . فأنا لازلت احبك ولكن أختى قد قطعت علاقتها بك
وهى لا تصفح عنك ؛ ان ندمىح . ان اسمك وحده يملؤها بالحقد على
حياتها الماضية . فصاح أبى :

— ومن الملو ؟ انت . انت يا وغد . قلت :

— أجل . انى انا الملو وانا خايف الملو على أشياء كثيرة . ولكن لم
كانت حياتك التى حاولت أن تفرمها عينا غبية جامدة عارية عن كل
موهبة ؟ لم لم اجد بى اوائى الناس الذين قضيت الثلاثين عاما الفائمة تبني
لهم المنازل . رجلا واحداً يهيدى الى طريق الحياة الحق . فأتجنب هذا
العذاب ؟ لبس فى هذه المدينة رجلاً شريف واحد . ومنازلك هذه حطائر
معاونة ينكل فيها بالأمهات والبنات ويهلب فيها الأنباء . يالأمى البائسة !
يالأختى التسعة ! ان المرء ليجتاج ان يخدر نفسه بالقودكا ، والورق .

والغيبة ، والملق ، والرياء ، ويقضى الأعوام يرسم منازل عفنة — حتى
يحجب عن عينيه كل الشقاء الذى تنطوى عليه تلك المنازل ، لقد وجدت
مدينتنا منذ مئات السنين ، ولكنها لم تقدم للوطن على مدى ذلك الزمن
رجلا نافعا واحداً ، واحداً . لقد خنقتم كل شيء حتى مرح وهو ما يزال
جنيثاً . هذه مدينة اصحاب حوائيت وفنادق ، وكتبه ، ومرايين ، مدينة
لا تعيش لغاية . مدينة فاسدة . لن يضير أحداً أن تحقق من الوجود محققاً .
قال أبى وهو يتناول مسطرة من مكتبه :

— لا أريد أن أسمعك يا وغد ، انت سكران ، أتجروا ان تجيء الى
حضرة ابيك فى مثل هذه الحال ؟ اعلم آخر الأمر ولتعلم اختك الفاجرة
انكم لن تنالوا منى شيئاً . فقد قطعت ما بينى وبين ولدى العاقين . فإذا
جلب العقوق والعناد الآن عليهما الشقاء فأنا لا أحس نحوهما برحمة . عد
من حيث أتيت . قد شاء ربى أن يعذبني بكما . ولكنى أتحمل هذه المحنة
صابراً كما صبر أيوب . وأتعزى مثله بألمى وعملى المتصل . ولن نخطو عتبة
دارى حتى تصلح من امرك . فأنا رجل عادل . وكل ما انصح به عملى سليم
فإذا كنت تبغى نفسك الخير فلتذكر ما قلته لك وما اقوله الآن .

خرجت مستأسماً . واست اذكر ما حدث لى فى تلك الليلة ، ولا
فى اليوم التالى . ولكنهم يقولون انى كنت أسير فى الطريق مترنحاً ، دون
قبعة . وأنا أغنى بصوت عال ، يتصايح خلفى جماعة من الصبية الصغار :

— النفع القليل ، النفع القليل !

لو أنى أوصيت بصنع خاتم لجلعتهم ينقشون عليه : « لاشيء يمضى » .
فأنا أعتقد أن لاشيء يمضى دون أن يترك أثراً ما ، وأن كل خطوة صغيرة
تنطوى على معنى لحاضر الحياة أو مستقبلها .

لم يذهب ما مررت به فى حياتي سدى . فأحزاني الكبيرة ، وصبرى ،
قد حركت قلوب الناس فى المدينة فلم يعد أحد يسميني « النفع القليل » .
ولم يعد أحد يضحك منى ، أو يرمى على الماء حين أجتاز السوق . لقد
اعتادوا أن يروني عاملاً ، ولم يعودوا يمجّدون غرابة فى أن أحمل دلاء
الطلاء وأضع الزجاج فى النوافذ . وقد أصبحت أعتبر صانعاً ماهراً ،
ومقاولاً لا يتقدم عايه سوى راديش . الذى استرد عافيته وعاد يعطى قباب
الكنيسة دون سقالة . ولكنه لم يعد من القوة بحيث يرأس الرجال ،
فأخفت مكانه . وصرت أطوف بالمدينة أتصيد الصفقات ، وأسأجر
العمال وأطردهم ، وأستدين بربح باهظ . وأصبحت الآن -- وأنا مقاول --
أدرك كيف يقضى المرء أحياناً أياماً ثائرة فى البحث عن صفقة صغيرة
أو عن عمل .

أصبح الناس يتطففون معى ، ويخاطبوننى باحترام ، ويقدمون لى
الشئ فى منازلهم حيث أعمل . ويبعثون إلى بائخادم يسألون هل أطالب
غذاء ؟ وكثيراً ما يأتى الصبيان والبنات يراقبوننى بأعين مشوقة حزينة
وحدث مرة أن كنت أعمل فى حديقة المحافظ . أطلى رخام البيت

الصيف ، فجاء المحافظ . ولما لم يكن لديه ما يعمل فقد بدأ بمحادثتي . ذكرته كيف أرسل إلى مرة يحذرنى . ولكنه بقي لحظة يحرق فى وجهى ، وفتح فيه مثل دائرة . ولوح بيديه وقل : لا أذكر .

أدركتنى السن ، فأصبحت صموتا حزينا رزينا . قل أن أضحك . ويقال إنى غدوت مثل راديش ، وأصبحت مثله أثقل على الناس بأرائى الخلقية التى لا تقضى إلى شيء .

أما ماريا فيكتوروفنا . زوجتى السابقة ، فتعيش فى الخارج . فى حين يبنى أبوها خطا حديديا ببعض المقاطعات الشرقية ويشترى أرضا هناك .

والطبيب بلاجوفو فى الخارج أيضا . وقد عادت دوشنيا إلى السيدة سبراكوف . بعد أن احتال على المهندس . فتنازل لها عن خمس القيمة . وأصبح مويشى يمشى بهيمة عريضة . ويكثر أن يذهب إلى المدينة فى عربة . ينزل منها عند المصرف . ويقال إنه قد اشترى أخيرا ضيعة مرتفعة . ولا يزال يتساءل فى المصرف عن دوشنيا لأنه يريد أن يشتريها أيضا .

أما إيفان سبراكوف التمس فقد اعتاد أن ينسكح فى المدينة ليعمل شيئا . ويسرف فى الشراب . وقد حاولت أن أستخذه فى عملنا . ففقد وقتا معنا يطلى السقوف ويضع الزجاج . وكاد العمل يشغفه . وأصبح كما يكون الذعاش . أما . يسرق الزيت ويطلب المنح ويسكر . ولكنه

ثم بعد قليل . وثقل عليه العمل . فعاد إلى دوشيا . ثم علمت من
مض الفلاحين أنه كان يحرضهم على أن يقتلوا موسى ذات ليلة وينهبوا
اسيدة شبرا كوف .

أما أبي فقد تقدمت به السن ، وانحنى ، ولم يعد يقوى على أكثر
من أن يخرج كل مساء يتشى فرييا من منزله .

وحين تفشت بيننا الكوليرا كان بروكوفى يشى أصحاب الخوانيت
بالكونياك والقار . ويأخذ منهم نقوداً لقاء ذلك . وقد جلد -- كما فرأت
في الجرائد -- لأنه كان يجلس في دكانه ويشهر بالأطباء . وقد مات صبيه
نيكولكا بالكوليرا . ولا زالت كاربوفنا باقية . ولا زالت تحب بروكوفى
ونخشاه . وكلما رأته هزت رأسها آسفة وقالت متهددة :

— يا عزيزى التعس ! أنت متى ضائع . ضائع .

أنا أعمل طوال الأسبوع . من البكور حتى وقت متأخر من
الليل . وأخرج أيام الأحاد والعطلات مع ابنة أختى الصغيرة - فقد
توقعت أختى صبيا ولكنها ولدت طفلة - وأذهب معها إلى المقبرة ،
حيث أقف أو أجلس . أنظر إلى قبر أختى العزيزة . وأقول للطفلة إن
أمها ترقد هناك .

وكثيرا ما أجد أيونا بلاجوفو إلى جوار القبر . فنتبادل التحية
وتقف صامتين . أو نتحدث عن كليوباترا . وعن الطفلة . وعن شقاء
هذه الدنيا . ثم نترك المقبرة ونمشى في صمت . فتناقل في مشيتها حتى

تطيل من لقائنا ، وتمرح الطفلة الصغيرة في سعادة ، وقد كسرت عينيها
تتقى الشمس المشرقة ، وتمد إلينا يديها ، فنقف ونشترك معا في مداعبة
تلك البنية الحلوة .

وحين نبلغ المدينة ، تحيىني أنيوتا بلاجوفو مضطربة خجاة ،
وتتابع المشى وحدها حزينة محاذرة ... ولم يكن لأحد المارة إذا نظر إليها
أن يتخيل أنها كانت منذ قليل تسير إلى جانبي بل تداعب الطفلة مـ

السر محمود الشفيطي

أصدقاء الأدب الروسى

مكتبة نهضة مصر بالفيحالة

مقدم أحدث المؤلفات لشهر أبريل سنة ١٩٤٥

التمن
مليم

مكتبة الجيل الجديد :

- ١ — عن والعلم للدكتور على مصطفى مشرفة بك ٥٠
- ٢ — مشاكل الشاب العبية للدكتور أحمد عرب راجح ٦٠
- ٣ — وحى العلم للدكتور مصطفى عبد العرير ٥٠

كتب أدبية

- ٣ — سيف وهاب الاستاذ مرح حدران . ٢٥٠
- ٢ — اثورات الثلاث للدكتور مصطفى كمال زيد . ٢٥٠
- ٣ — المرأة للاستاذ محمود شلى . ٢٥٠

كتب متنوعة .

- ١ — حاصر يا اقدم للدكتور عبد الله ايم أبو لعل القرى ٥٠
- ٢ — التسلية بالألعاب السحرية الاستاذ شوقى محمد يوسف ١٥٠

وتطلب جميعها من ملتزمها

احمد محمد ابراهيم صاحب مكتبة نهضة مصر بالمعجالة تليفون ٥٠٨٢٧

ومن المكاتب الشهيرة بمصر والأقطار العربية

لجنة الجيل الجديد

تقدم أحدث مؤلفاتها

- العدد
- ١ - جان راسين ١٥٠
- للاستاذ محمد حمودة
- ٢ - النبي في مصر ١٥٠
- للاستاذين علي ابراهيم الاقطش ومصطفى كامل فودة
- ٣ - في دنيا الورد، وفصل آخر ١٢٠
- للاستاذ حبيب توفيق
- ٤ - حياتي لانطور نسيكوف ١٥٠
- للاستاذ محمود الشنطى

وتطلب جميعها من ملتمسها

أحمد محمد ابراهيم صاحب مكتبة نهضة مصر بالقاهرة

تليفون ٥٠٨٢٧

ومن المكاتب الشهيرة بمصر والاقطار العربية



